

كتاب

دعوة الأطباء

على مذهب كليلة ودمنة

تصنيف

ابي الحسن المختار بن الحسن بن بطلان الطبيب

عني بطبعه وتصحيحه

الدكتور بشارة زلزل

طبع بالمطبعة الخديوية بالاسكندرية سنة ١٩٠١

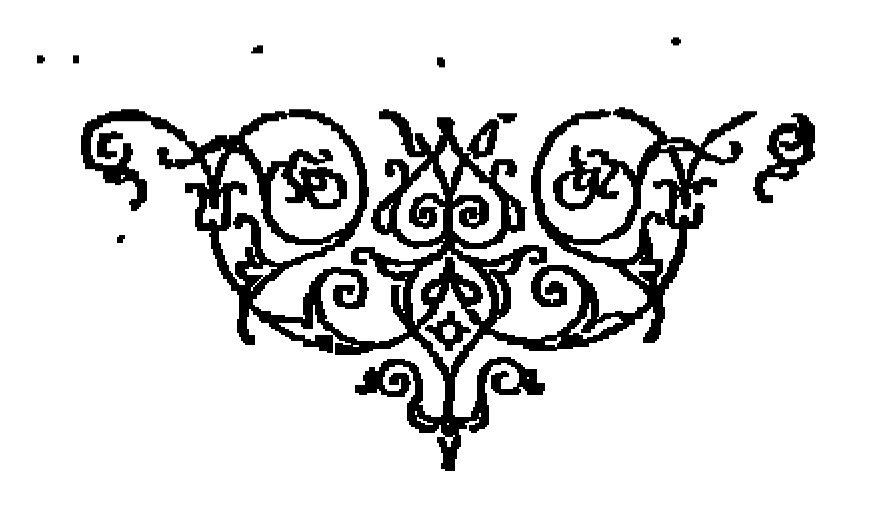
مقدمة

اما بعد الحمد لله تعالى فهذه رسالة تشهد لمصنفها بالفضل الباهر كما يشهد النور للمصباح الزاهر . وتخبر عن ادبه الوافر كما يخبر النسيم عن شذا الروض العاطر. عثرتُ عليها في خزانة كتبي وقد توارت بالحجاب . فوجدتها آيةً في الحسن يعتبر بها ذووا الالباب واثراً من احسن الآثار القديمة لا تعادله قيمة . بل درّة يتيمةً لم تزل مكنونة في الصدف . وهي مما لا يُظفَر بهِ الا في نوادر التحف فآثرت ان اتحف بها القرآء من ابنآء هذه اللغة رجآء ان يتدبروا بما اشتملت عليه من الحكم والنصائح والفوائد مسبوكةً في قالب الفكاهة قلائدَ من عقيانٍ ومنظومةً في سلك الفصاحة عقوداً من جمان وفي كلام مصنفها عنها ما يغني عن زيادة البيان قال"هذه رسالة دعوة الاطبآء على مذهب كليلة ودمنة تشتمل على مزحٍ يبسم عن جدٍّ وباطلٍ ينطق عن حقّ وخير القول ما اغنى جِدُّه والهى هزله صنفها ابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان من امثال الحكمآء وكلام البلغآء ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق

طريقته ويتناول المتعلم بسهلها لتسهيل غرضه فيقرب عليه تناوله ويظهر للقارئ فضل الاطباء المهرة وعجز المخرقين بهذه الصناعة „

وقد صدرتها بترجمة المصنف نقلاً عن كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء بياناً لفضله وتعريفاً له باصله وفصله ولم اتصدَّ لتغيير شيء مما جاء في هذه الرسالة الا ما اقتضاه التصحيح والتهذيب تفادياً من الفاظٍ وعبارات لا يألفها ذوق الادباء من ابناء هذا العصر وعلقتُ شرحاً على ما كان منها عويص الكلام ليعمَّ نفعها ويزدان بحلية الكمال طبعها والله المسئول ان ينفع بها المطالعين وهو حسبنا ونعم الوكيل

بشارة زلزل



ترجمة المصنف نقلاً عن عيون الانباء في طبقات الاطبآء

لابن ابي أصيبعة

,, ابن بطلان'' هو ابو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان نصراني من اهل بغداد وكان قد اشتغل على ابي الفرج عبدالله بن الطيب وتلمذ له واتقن عليه قرآءة كثير من الكتب الحكمية وغيرها ولازم ايضاً ابا الحسن ثابتاً بن ابرهيم بن زهرون الحرّاني الطبيب واشتغل عليه وانتفع به في صناعة الطب وفي مزاولة اعمالها. وكان ابن بطلان معاصراً لعلي ابن رضوان الطبيب المصري وكانت بين ابن بطلان وابن رضوان المراسلات العجيبة والكتب البديعة الغريبة ولم يكن احد منهما يؤلف كتاباً ولا يبتدع رأياً الا ويردُّ الآخر عليه ويسفهُ رأيهُ فيهِ وقد رأيت اشياءَ من المراسلات التي كانت فيما بينهما ووقائع احدهما بالآخر. وسافر ابن بطلان من بغداد الى ديار مصر قصداً منه الى مشاهدة عليّ بن رضوان والاجتماع به. وكان سفرهُ من بغداد في سنة ٤٣٩ ولما وصل في طريقه الى حلب اقام بها مدة واحسن اليه معز الدولة ثمال ابن صالح بها واكرمه اكراماً كثيراً وكان دخوله الفسطاط في مستهل جمادى الآخرة من سنة ٤٤١ واقام بها ثلاث سنين

وذلك في دولة المستنصر بالله من الخلفاء المصريين وجرت بين ابن بطلان وابن رضوان وقائع كثيرة في ذلك الوقت ونوادر ظريفة لا تخلو من فائدة. وقد تضمن كثيراً من هذه الاشياء كتاب ألفهُ ابن بطلان بعد خروجهِ من ديار مصر واجتماعهِ بابن رضوان ولابن رضوان كتابٌ في الرد عليه وكان ابن بطلان اعذب الفاظاً واكثر ظرفاً واميز في الادب وما يتعلق به ومما يدل على ذلك مما ذكرهُ في رسالته التي وسمها ,,بدعوة الاطباء'' وكان ابن رضوان اسود اللون ولم يكن بجميل الصورة ولهُ مقالةٌ في ذلك يردُّ فيها على من عيرهُ بقبح الخلقة وقد بيّن فيها بزعمه ان الطبيب الفاضل لا يجب ان يكون وجههُ جميلاً. وكان ابن بطلان اكثر ما يقع في عليّ بن رضوان من هذا القبيل واشباهه ولذلك يقول فيه في الرسالة التي وسمها بوقعة الاطباء

فلما تبدّى للقوابل وجههُ ... نكصنَ على اعقابهنَّ من الندم

وكان يلقبه بتمساح الجن وسافر ابن بطلان من ديار مصر الى القسطنطينية واقام بها سنة وعرضت في زمنه اوباءٌ كثيرة ,,وقلت'' من خطهِ فيما ذكرهُ من ذلك ما هذا مثاله قال ,,ومن مشاهير الاوباء في زماننا الذي عرض عند طلوع الكوكب الآثاري في الجوزاء من سنة ٤٤٦ فان في تلك السنة دُفن في كنيسة لوقا بعد

ان امتلأت جميع المدافن التي في القسطنطينية اربع عشرة الف نسمة في الخريف فلما توسط الصيف في سنة ٤٤٧ لم يوفِ النيل فمات في الفسطاط والشام اكثر اهلها وجميع الغرباءِ الّا من شاء الله وانتقل الوباءُ الى العراق فاتى على اكثر اهله واستولى عليه الخراب بطروق العساكر المتعادية واتصل ذلك بها الى سنة ٤٥٤ وعرض للناس في اكثر البلاد قروح سوداوية واورام الطحال وتغير ترتيب نوائب الحميات واضطرب نظام البحارين فاختلف علم القضاء في تقدمة المعرفة... وبعد ذلك كلام على ما كانوا يعتقدون من تأثير الاجرام في حدوث الاوبئة الى ان نقل اسماء جملة من مشاهير العلماء الذين فقدوا بالاوباءِ العظيمة في زمانه في مدة بضع عشرة سنة منهم الأجل المرتضى والشيخ ابو الحسن البصري واقضى القضاة الماوردي وابن الطيب الطبري ومهيار الشاعر وابو العلاءِ المعري وابو الحسن الصابيء وابو الفتح النيسابوري · وصاعد الطبيب وابو الفرج عبدالله ابن الطيب" اقول" ولابن بطلان اشعارٌ كثيرة ونوادر ظريفة وقد ضمن منها اشياءَ في رسالته التي وسمها بدعوة الاطباء وفي غيرها من كتبهِ وتوفي ولم يتخذ امرأةً ولا خلف ولداً ولذلك يقول من ابيات

ولا احدٌ ان متُّ يبكي لميتتي   سوى مجلسي في الطب والكتب باكيا

ولابن بطلان من الكتب كناش الاديره والرهبان · كتاب شرآء العبيد وتقليب المماليك والجواري . كتاب تقويم الصحة . مقالة في شرب الدوآء المسهل . مقالة في كيفية دخول الغذآء في البدن وهضمه وخروج فضلاته وسقي الادوية المسهلة وتركها . مقالة الى علي ابن رضوان عند وروده الفسطاط سنة ٤٤١ جواباً عما كتبه اليه . مقالة في علة نقل الاطباء المهرة تدبير اكثر الامراض التي كانت تعالج قديماً بالادوية الحارة الى التدبير المبرّد كالفالج واللقوة والاسترخاء وغيرها ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدمآء في الكنانيش والاقراباذينات وتدرجهم في ذلك من العراق وما والاها على استقبال سنة ٣٧٧ الى سنة ٤٥٥ وصنف ابن بطلان هذه المقالة بانطاكية في سنة ٤٥٥ وكان في ذلك الوقت قد أُهّل لبناء بيمارستان انطاكية . مقالة في الاعتراض على من قال ان الفرخ احرّ من الفرّوج بطريق منطقية الفها بالقاهرة في سنة ٤٤١ . كتاب المدخل الى الطب . كتاب دعوة الاطبآء الفها للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان ونقلتُ من خط ابن بطلان وهو يقول في آخرها: فرغت من نسخها انا مصنفها يوانيس الطبيب المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون بدير الملاك المتنيح قسطنطين بظاهر القسطنطينية في آخر ايلول سنة خمس وستين وثلاثماية والف

(١٣٦٥) هذا قوله ويكون ذلك بالتاريخ الاسلامي من سنة ٤٥٠. كتاب وقعة الاطباء . كتاب دعوة القسوس . مقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة

م



بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رسالة دعوة الاطباء على مذهب كليلة ودمنة تشتمل على مزح يبسم عن جد وباطل ينطق عن حق ، وخير القول ما اغنى جده والهى هزله ، صنفها ابو الحسن المختار بن الحسن بن بطلان للامير نصر الدولة ابي نصر احمد بن مروان (١) من امثال الحكماء وكلام البلغاء ونوادر الفلاسفة ليجد العالم فيها ما يوافق طريقته وينقاد

---

(١) هو ابو نصر احمد بن مروان بن دوستك الكردى الحميدى الملقب صاحب الدولة نصر الدين صاحب ميافارقين وديار بكر ملك البلاد بعد ان قتل اخوه ابو سعيد منصور بن مروان فى قلعة الهتاج ليلة الخميس خامس جمادى الاولى سنة ٤٠١ وكان رجلاً مسعوداً عالى الهمة حسن السياسية كثير الحزم قضى من اللذات وبلغ من السعادة ما يقصر الوصف عن شرحه وحكى ابن الازرق الفارقى فى تاريخه انه لم ينقل ان نصر الدولة صادر احداً فى ايامه سوى شخص واحد قص قصته ... عاش ٧٧ سنة وكانت امارته ٥٥ سنه

نقلا عن ابن خلكان

المتعلم بسهلها الى تسهيل غرضه فيقرب عليه تناوله ،ويظهر للقارىء فضل الاطباء المهرة وعجز المخرقين بهذه الصناعة وهي اثنا عشر قسماً

الاول منها في فاتحة الكتاب ومدح بغداد وذم ميافارقين لما فيها من الكساد. الثاني في ذكر مجالس الطعام وايراد الحجج التي تحمي عن الاكل فيما يقدم من الالوان. الثالث في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ما جرى من المسائل الرابع في اعتبار الطبائعي بمسائل توضح فضله وتظهر جهله الخامس في سؤال الكحال عما لا يسعه جهله السادس في اعتبار الجرائحي بمعرفة التشريح والمنافع. السابع في امتحان الفاصد بما يحتاج الى معرفته من المنافع. الثامن في اعتبار الصيادلة بمعرفة العقاقير والادوية التاسع في غيرة الاطباء وتغايرهم على المرضى. العاشر في اعتذار الطبيب المصروف وذم الصارف له. الحادي عشر في استهانة العامة بالصناعة الطبية والرد عليهم. الثاني عشر في خاتمة الكتاب وذكر سبب

انقطاع الزيارة والاجتناب ونسأل الله ان يوفقنا لدرك الاغراض الصحيحة . والالفاظ الفصيحة ، ليكون ما نأتي به مالكاً لرضى من حث على نظم منثره وجمع منتشره ، انه جواد مجيد قريب مجيب .

الاول في فاتحة الكتاب

قال بعضهم لما دخلت ميافارقين سألت عمن بها من المتطببين . فارشدت الى دكة بالمطارين عليها شيخ من ابناء السبعين . مرهف الشمايل حلو الدعابة عذب الفكاهة حسن المعارضة متميز عن اضرابه متشبث باذيال الادب ذو براعة في صناعة الطب فملت نحوهُ مسلماً فرد عليَّ السلام . واوسع لي المكان وتلقاني بالاكرام والاعظام . وقال من انت قلت غريب رمت بي الاقدار الى هذه الديار . قال وما صناعتك قلت طبيب . قال انفع الصنائع ، واربح البضائع ، ومن اين اقبلت قلت من بغداد . قال بغداد سرة الدنيا وقطب الارض

وعرصة الادب ومعدن الفضل ودار السلام وحضرة الامام وقبة الاسلام وانشد

احبُّ الحلولَ بتلك الطلولِ وجرَّ الذيولِ بذاك المقام

دخلتها قديماً لطلب العلم وزمانها كالربيع المرع وايامها كالاعياد والجمع . وترابها اثمد تكتحل به الاحداق . وحصاها در تقلد به الاعناق . وبضائع العلماء قائمة المواسم والاسواق ولقيت بها ابن الخمار وابن عبدان ونظيف بن يمن القيس وابن نكس وابا الوفاء المهندس . قلت له لِمَ رحلت عنها أملت المقام بها فانشد

لعمركَ ما فارقتها عن قلىً بها واني بشطيّ جانبيها لعارفُ

قلت فكيف سمحت نفسك بمفارقة هؤلاء الفضلاء وهم كانوا لك الغرض الاقصى . فقال والله يا سيدي ما صعدت الى هذه البلد وقد بقي من القوم احد قلت ثم ماذا قال

ثم انقضت تلك السنونَ واهلها فكأنها وكأنهم احلامُ

ويعزُّ عليَّ ما فعل الدهر باولئك الانجم الزهر فقد فقد والله العلم بفقدهم ومات الفضل بموتهم ، ولعلهم ياسيدي لو عاشوا الى زماننا هذا لماتوا قبل اوانهم قل الطالب وزهد الراغب وصارت الكتب تباع على العطارين للحوائج وعلى الذهبيين للسفائج وعلى الملاحين للمزاود هذه والله صناعة دثرت وخمدت نارها وطفيت وصار المتعرض لها غرضه التكسب لا التطبب وقد قيل انه بالحكمة تطبُّ الابدان وبالدراهم تمرض الحكماء فاذا رأيت الطبيب يجر الداء الى نفسه فتى يداوي غيره شعر

وهل يرجى لذي سقمٍ شفاءٌ اذا ما كان مسقمهُ الطبيبُ

ثم قال لي فانت لمَ لم تقم ببغداد فقلت شعر

تقيم الرجالُ الاغنياءُ بارضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا

اما سمعت قول الشاعر

بغداد دارٌ لاهل المالِ طيبةٌ وللمفاليس دارُ الضنكِ والضيق

ظللتُ حيرانَ امشي في ازقتها كأنني مصحفٌ في بيتِ زنديق

قال صدقتَ ولكن عرفني لمَ قصدت هذه الديار قلتُ لزيارة عمر الزعفران ونيتي الارتسام بالطب ان طابت لي هذه البلاد. فاضطرب لعزيمتي وقال هيهات يا هذا لأن تسمع بالمعيدي خير من ان تراهُ . خاب والله سعيك ، وكبا زندك ، وليتني كنت مثلك خالي العذار فاهرب من هذه الديار . فما يتأتى لي بها مقام لانني وردت اليها وبها قوم يحسن عليهم الثناآء ويقبح عند تقريظهم الاستثناآء ، ان اجتمعوا حسبتهم جوهراً منظوماً ، واذا تفرقوا خلتهم لوءلوءاً منثوراً

شعر

من تلقَ منهم تقلْ لاقيتُ سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

قلت فما فعل الدهر بهم قال ماتوا والله هم واولادهم وغلمانهم ولكن بعد ما اتعبوا خاطري واسهروا ناظري في علاجهم الى ان قضى الله بموتهم فلله درهم وسقى صوب الغمام

قبورهم فانهم كانوا كفوني مؤونة الزمان مدة حياتهم وكنت في تضاعيف برهم لا اخلو من صبية تفطم اوغلام يختن او مفصود اول فصادة او مريض ادخله الحمام مع هدايا الاعياد والنواريز وما يتحصل من زبون الدكان فانه ما كان يموت لي مريض الا وقد مرض لي عوضه اثنان فانا في تضاعيف ذلك في فلك من العجب والتجمل كأني قرواش بن المقلد او ملك ميافارقين وآمد . واليوم اذا انقطع الوتر فصدنا عرقين بدانق . ولولا ان عندي بقية من موسم سنة الخوانيق ازمتي بها والا كنت من الهالكين . واظرف من هذا باسره انه كان في كل خريف تكثر الامراض . وفي كل خمس سنين يمرض وباء وموت . فمنذ يوم ملك بن مروان هذه الديار كسدت الصناعة وبارت البضاعة وصحت الاجساد وانكشف الوباء عن هذه البلاد وانقطعت علة الخوانيق . وكانت قل ما فارقت الحلوق . وبطلت

الامراض الخريفية وكان موسماً مالوفاً معروفاً فصرنا لا نرى مريضاً الا في كل حين ولا نشاهد جنازة الا في كل زمان بعيد ولا نسمع صراخاً الا في كل دهر مديد حتى كأن اقبال الامير قد عصم الابدان من الاسقام وحصن الاعضاء من الآلام او كأنه من بين آل مروان قد اخذ للخلق من الدهر الامان. فما في الناس الا من ينشد فيه شعر الحسن بن هانيء :

علقتُ بحبلٍ من حبالِ محمدٍ · أمنتُ بهِ من طارقِ الحدثانِ
تغطيتُ من دهري بظلّ جناحهِ · فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو قيلَ للايام ما اسمي مادرت · واين مكاني ما عرفنَ مكاني

يا سيدي ما اسعده على نفسه والناس ، وما أثقل رجله علينا منذ يوم ولي ديارنا ما يفتكر احد فينا ولا يحتاج الينا ولا يلتفت نحونا بعد ان كان الطبيب في هذه البلد اعزّ من جبهة الاسد ، اليوم جمهور الحفارين والحمالين قد بعدوا عن هذه الديار وتشتتوا في القرى والامصار. واشتغل اكثرهم

بالزروعات وسوق العجل والفدان . ونقل الجبصين من رؤوس الجبال الى البلدان. وربما ياتاني البطال منهم فاسكن منه لوعته ويقول ربما عاد ذلك الزمان شعر

عسى الايام ان يُرجعن قوماً كما كانوا على اقصى المرادِ

يا سيدي عن اي شيء اخبرك من تلك الايام . والله لقد كانت تخرج الجنائز الى المقابر بالثياب الديباج. كأنها زهر البستان ولقد عدَّ في يوم من ايام الوباء مما قد خرج من باب واحد من الجنائز فكان مايتي جنازة ممن كنت اطبه انا سوى من كان يطبه هذا الطبيب الذي في جواري وكانت تقف لي كل يوم على باب داري خمسون بغلة من بغال الجند والكتاب سوى رسل التجار. ومن تلك السنة صرت اتيه من عمارة بن حمزة واعزّ من عمر بن معدي كرب فمن لنا بذلك الموسم وانشد

قد ذقتُ منهُ ما ليس يقلعهُ ابو الحسين القلاّع من ضرسي

يا اخي اين كنت واهل هذه البلاد لا ترى فيهم صحيح

المزاج ولا مستغنياً عن التداوي والعلاج . والجنائز تجلى كالعرائس وتحط على المقابر كالنجوم الزواهر . واصوات الصوائح في المآتم والنوائح كترنم المزاهر . واصطخاب الآلات والمزامر . ومغسلوا الموتى لا يوصل اليهم الا بالملاطفات . والاطباء يتزاحم على دكاكينهم بالمهاري والبغلات اليوم وحقك الناس متشاغلون بتصفية القناني . والاقداح واختيار الملاهي والغواني . والضرب على المثالث والمثاني والغناء بشعر الحسن بن هاني :

قد علقنا من الامير حبالاً   أمنتنا طوارقَ الحدثانِ

يا سيدي اي شيء تعمل في هذا البلد والله اني ابقى اليوم والشهر لا يسألني انسان حاجة ولا تجتاز بي جنازة . واذا سهل الله وجاءنا مريض كان كما قال المثل اذا كسد اصحاب القلانس جاءهم زبون معوجوا الرؤوس . وقد والله ياسيدي سئمت نفسي هذا البلد وملني اهله . لان الماء اذا

وقف ظهر نتنهُ . واذا كثر لبثهُ .ظهر خبثهُ . ولقد حدثتني نفسي دفعات بالخروج منه ثم اقول الى اين اخرج ولمن أَقصد واين اتغرب وما بقي اقل مما مضى ومع اليوم غدا. وما يقعدني الا الالف . والزمان كلما مرَّ جآء الى خلف. كلُّ هذا غرضهُ ان يبغض لي المقام .ثم قال حدثني ما تعمل في غمر الزعفران . قلت يا سيدي سمعت جالينوس يقول ان قياس طب الهياكل الى طبنا كقياس طبنا الى طب الطرقات . وانا رجل ضعيف المعدة ناقص الشهوة . وما ابقيت دوآء الا شربتهُ وما نفعني وقد وصف لي ان في هذا الغمر رجلاً من فضلاء الرهبان الذين رأوا الدنيا بعين الحقيقة فاطرحوها عن خبرة بها فانا امضي للقآئهِ والتبرك بدعائه . فضحك الشيخ مني حيناً وقال ما اشبه هذا منك الا برجل رمدت عيناهُ فلقيهُ صديق لهُ فقال لهُ ارى وجع عينيك قدطال فبماذا تعالجهما قال بدعآء الوالدة فقال لهُ لو اضفت اليه قليل انذروت لكان اسرع في الاجابة.

وكذلك انت لو امتضت عن دعآء الرهبان بمعجون الزامهران كان ابلغ في تقوية المعدة وتنبيه الشهوة . وهذا دوآء عندي عملتهُ لنفسي وانا اواسيك منهُ بما تنتفع به . هات عرفني كيف هضم معدتك للطعام وكم مقدار غذآئك في هذه الايام . قلت اما شهوتي فعلى غاية التقصير وغذآءي نزر يسير . فلما نظر الشيخ مني الى ضعف المعدة وقلة الشهوة قال أتقوم الى البيت يافديتك لنأكل شيئاً ونتحدث فقد آنست بك لانك لست من اهل هذا البلد فتخرج حديثنا الى احد . وقلما آنستُ بانسان . وما انا مع الاخوان والاصحاب الا كلمع السراب .

عدوك َمن صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحابِ
لان الدآء اكثر ما تراهُ يكونُ من الطعام او الشرابِ

فتمنعت وحلفت لهُ اني قد اكلت فالحّ عليّ فقمت الى دارهِ وجلسنا ساعة نتحدث واذا الغلام قد اتى بطبق عليه منديل وفوقهُ خبز وخل وبقل فلما وضعه بين ايدينا قال :

وما الخصبُ للاضياف ِان تكثر القرى * ولكنما وجهُ الكريمِ خصيبُ
أُضاحك ضيفي قبل انزال رحلهِ * فيخصب عندي والمحلُّ جديبُ

ثم قال يا سيدي نحتاج ان نعتذر فالعامة تقول اذا طرقت فما حضر واذا دعيت فلا تذر. ولكن الايام طوال .واخذ رغيفاً وقال ، رحم الله العجوز لقد كانت لها عناية حسنة بالخبز وهي علمت هذا الغلام يخبز هذا الخبز كل يا سيدي فانه مغسول الحنطة، مختمر العجين . معتدل الملح خانجي الظهر . مورد الوجه . علك المضغ . سريع الهضم ملائم الجسم ثم اخذ طاقة هندبآء وقال اعلم يا سيدي ان الهندبآء انواع اجودها الرقيقة فانها خير من غيرها واصلح في اصلاح الكبد واسرع في تفتيح السدد وكثيراً ما سقي مآؤها مع الراوند انظر ياسيدي الى عرض ورقها وصفآء خضرتها وتطعم عذوبة طعمها ورطوبتها وبردها لا سيا اذا اكلت فخيرٌ ان تؤكل مع هذا الخل الثقيف انظر اليه فما معولي في دفع الصفرآء الا عليه . ولكن لا خيا الله هذا

الغلام فانه غلط منذ ايام وقدم اليَّ منهُ شيئاً قليل المزاج فاكلت منه شيئاً على اغترارٍ بهِ فما ان حصل منه يسير على لساني حتى طار الى حلقي ورأسي فبادر رعافي وسالت دموعي واتصل بي السعال وبقيت متألماً عدة ايام . ثم قال كل منهُ واحذرهُ . فلما هممت بالاكل قال ألست على النية في الحمية قلت لعلي اختار يوماً لذلك . قال اعظم من الذنب اليأس من الرحمة واشد من الخطيئة المماطلة بالتوبة وشرٌّ من المرض التسويف بالحمية . وقد قيل ان الشفيع المتخلف عدو طالب الحاجة والطبيب المتجم رسول ملك الموت والمريض المخلط كدودة القز التي كلما ازدادت نسجاً ازدادت من الحيوة بعداً قلت يا سيدي انا والله كاره للحمية فقال لعمري ان الحمية صعبة ولكن افضل الاعمال ما اكرهت عليهِ النفوس وفيثاغورس يقول من ساس معدتهُ فقد قرب جميع الاعضاء من الاعتدال وانت تحكم الصناعة ما كنت اظنك تحتاج الى بعض هذا فانهُ قبيح

بالطبيب ان يرى مخلطاً كما انه قبيح بالفقيه ان يكون فاسقاً فاستخر الله وامض العزيمة في الحمية وانظر الى الغذاء نصورته اذا استحال في غده فما احسن ما قال سقراط وقد اجتاز على كساح قد اخرج من حش كساحةً (١) يا اهل أثينا هذا الذي كنتم تغلقون عليه ابوابكم وتقيمون لحفظه الخزان وكانت شهواتكم تستخدم عقولكم في اعداده اليوم نفوسكم أنفة منه وطباعكم نافرة عنه . وحواسكم مع هذا ايضاً تروم مثل ما كان هذا عنه . ثم قال كل وتدبر بما قد سمعت فان هذه النصيحة متلقاة بالتحية وهذه الموعظة موشحة بالحكمة. فلما بدأت بالاكل أمسك يدي وقال اسمع كلاماً ينفعك فيما شكوت ويقرب عليك صحتك اعلم ان مداواة الامراض ضبط الشفتين والرفق باليدين واخذ المريض نفسه بموجب العقل لا بد واعي الهوى والجهل فان

(١) الكساحه ما يكسح من زبالة ونحوها والحش البستان ويكنى به عن المستراح

العقل يلتمس من الاغذية انفعها والهوى يطلب من الاطعمة اشهاها والذها وقلما يجتمع في الشيء النفع واللذاذة فان النفع قلما يكون في الغذآء واللذاذة قل ما توجد في الدوآء فاياك ان تتلذذ بحلاوة الغذآء فتتنغص بمرارة الدوآء وانشد

فان المرَّ حين يسرُّ حلوٌ وان الحلوَ حين يضرُّ مرُّ
فخذ مراً تصادف منهُ نفعاً ولا تعدلْ الى حلوٍ يضرُّ

واياك ان تؤثر لذة عاجلة فانها على المرء مضرة آجلة لاسيما وانت مريض وقد امتلأت من الغذآء . قلت يا سيدي قد انهضم وانا مشته للطعام فقال جوع كذاب وشهوة كالسراب وانشد

وللهضوم مواقيتٌ مقدرةٌ وكلُّ شيءٍ لهُ حدٌّ وميزانُ
فلاتكنْ عجلاً فيما تحاولهُ فليس يحمدُ قبل النضج بحرانُ

قلت فما رأيك في التقدير قال الراي التوقف فان الداء الدوي ادخال الطعام على الطعام وهو الذي افنى البرية

وقتل السباع في البرية فان التخمة اذا بقيت اتلفت واذا تحللت ضعفت وبقراط يقول لا تغترّ بامرٍ جرى على غير القياس مثل جوعٍ يجده المريض قبل النقاهة. قلت يا سيدي اما تعلم ان القدماء يقولون ان القوة للمريض كالزاد للمسافر والمرض كالمسافة ولهذا يجب ان لا يهمل الطبيب امر القوة خوفاً من سقوطها قبل منتهى المرض. قال وما علمت ان بقراط يقول ان الابدان غير النقية كلما غذوتها زدتها شرًّا قلت صدقت ولكن القدماء ايضاً يقولون ملْ مع المريض في بعض شهواته فان الطعام الشهيّ وان ضرَّ خير من غير الشهي وان نفع. قال الشيخ هذا صحيح الا ان القدماء ايضاً يذكرون انَّ الأبدان المملوءة بالفضول تحيل الاغذية وان كانت جيدةً الى طباعها. قلت وقد قالوا ايضاً اطرح العلاج بالدواء ما امكن التدبير بالغذاء. قال الشيخ الذي اعلم انك رجل معدتك رديئة واحشاؤك ليست نقية ولا آمن عليك ان دنوت من الطعام ان تقع في بلية

قلت يا سيدي انا آكل واستعين بالله . قال الشيخ لا حول ولا قوة الا بالله . اذا انقضت المدة كان الحيف في العدة فاضربت عن كلامه ثم هممت بالاكل فقال الشيخ مهلاً مهلاً اعلم شفاك الله ان صورة العلم عند العقل كصورة الغذاء عند الجسم الا ان برداءة الغذاء يهلك الجسم ويهبط هوى النفس الى اسفل السافلين وبحقيقة العلم تصفو النفس وتستصحب معها الجسم الى عليين ومقر الروحانيين ومقام العز ومعدن البهاء والفوز . والحكيم بقراط يقول ليس بالخبز يحيي الانسان بل بكل كلمة طيبة وسقراط يقول ان احببت ان تأكل فلا تاكل حتى تأكل . وافلاطون يقول آكل لاعيش لا أعيش لآكل فاياك ان تهجم على الاكل لكن تأنّ وتمهل وكن كالخياط الفارة (١) الذي يقدر الف مرة حتى يقطع فما في العجلة خير وخذ بقول الاول

قد يدرك المتأني حسن حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

(١) الفاره الحاذق والماهر النشيط

قلت له ولمَ لا آخذ بقول الثاني

وربما فات قوماً جلُّ امرهم من التأني وكان الحزمُ لو عجلوا

قال فاذا عزمت على الاكل فصغر اللقم وقطعها بالثنايا وكسرها بالانياب واطحنها بالاضراس وقلبها باللسان وابلع سحيقها واعد الى طحن الاضراس جريشها وقدّم البقول على الثرايد (١) واذا اكتفيت بالثرايد فلا تعدل الى التوابل (٢) وانشد

فالنفسُ راغبةٌ اذا رَّغبتها واذا تردُّ الى قليلٍ تقنعِ

واياك واللحمان فسقراط يقول لا تجعلوا بطونكم مقبرة للحيوان وجالينوس يقول اجهل الناس من ملأ بطنه من كلما يجدهُ . واعتمد على مقاومة الصفرآء بالاشيآء الحامضة والبلغم بالطعوم المالحة والسودآء بالثرائد الدسمة . واعلم ان الصفرآء كالصبي الصغير ترضيه الثمرة وتسخطه الكلمة

(١) جمع ثريدة وهي فتات الخبز في المرق

(٢) جمع تابل وهي ابزار الطعام اى مايطيب به الغذاء من الاشياء اليابسة كالفلفل والكمون

والسوداء كالثور يسوقه الصبي والمرأة واذا غضب لم يضبط
والبلغم كالسبع ان قُتل والا قَتل فاقهر البلغم قهرك عدوك
واخضع للصفراء خضوعك لمن فوقك وسالم الدم مسالمتك
صديقك وجاهد السوداء مجاهدتك عدوك واختصر
يا سيدي من كثرة الالوان فان الالوان المختلفة الطباع
تحتار المعدة في هضمها وتعجز القوة عن احالتها ولا تأكل
ما يكدُّ اسنانك في مضغه فتعجز معدتك عن هضمه .
واجعل يا سيدي ما يرد الحشى اثلاثاً ثلثاً طعاماً وثلثاً شراباً
وثلثاً نفساً واختصر من الغذاء فما يساوي الدنيا التردد
الى بيت الخلاء وقلل من شرب الماء البارد في تضاعيف
الغذاء وغلب العقل على الهوى فانه قلَّ من غلب هواهُ على
عقله فلم يعطب وقل من حرض على النساء فلم يفتضح
وقل من ابتلي بوزراء السوء فلم يهلك وقل من اكثر من
الطعام والشراب فلم يسقم وجعل الشيخ يمرُّ في ضرب
من هذا الفن ليشغلني عن الاكل فلما اطال كلامه واتسع

في الهذيان ميدانهُ اضربت عن كلامه صفحاً واقبلت على الاكل فامعنت في الخل والبقل وهو لا يستزيد اداماً ولا يستدعي طعاماً حتى خيل لهُ انني قد شبعت وتصور انني من الخل والبقل قنعت فقال لغلامه ارفع هذا عنا وقرب الشوآء منا . فقدم الغلام حملاً مشوياً فمددت يدي الى الاكتاف فقال اياك واياها فانها تقبل من القلب الفضلات فملت نحو الزّور فقال لا تتعرض له فانه بطيء الهضم فعدلت الى الكلى فقال هذه معدن البول ومائية الدم فاومأتُ الى الافخاذ فقال انها مجاورة للمعى والبراز فاستأذنته في الالية فقال الله في نفسك فانها وخمة رديئة تميت الشهوة وتحدث الهيضة فقلت فعلى ماذا اعتمد قال على الاطراف من العضد فهي الطف ما في الخروف لاسيما من هذا الرضيع المعلوف فاومأت الى اخذ طرف كان قريباً مني فقال تأخذ من الاطراف المؤخرة والمقاديم اشرف وتأخذ اليمنى منها واليسرى الطف لقربها من القلب والحرارة

الغريزية وبعدها من الزبل والفضلات الردية خذ ما اعطيك وتجنب ما سواهُ فانه يؤذيك ، ثم فرك احد الاطراف اليابسة وقال هاك هذه اليمنى فان الاعتماد كان عليها في الرعي والسعي فهلم نحوها يا ابن اخي فاخذتها ثم قال لغلامه ارفعه عني عسى ان نكفى غائلته وتأمن رداءته وبليته فلبلوغ الشهوات قرائن مهلكات وعوارض مؤلمات فرب اكلة قد حرمت اكلات وهات ما عندك فقدم مضيرةً (١) بلحم بقر فبدأت آكل فقال اعلم وفقك الله ان الآكل يستمري الاطعمة الموافقة له ولا يستمري الاطعمة المخالفة لطبعه وهذه مضيرة بلحم بقر والقدماء ينهون عنها لمن به ما بك وعن الجمع بين لحم البقر واللبن كما ينهون عن الجمع بينه وبين السمك وهذه والله معدن المفاصل والنقرس واللقوة والقولنج والفالج فالله الله ان تحملك الشهوة على الاستضرار بهذه المضيرة . ثم قال

(١) قال الفيروزوبادى المضيرة مريقة تطبخ باللبن المضير اى الحامض

لغلامه ارفعها عنا ففي رفعها الخيرة لنا فاني لا آمن ان ينقاد بزمام الهوى الى مناخ الشهوة فيقع من هذه المضيرة في امراض صعبة فرفعت. وقدمت ارزة بلبن قد عملت تحت الحمل فتصورت انه لا شيء يرجى بعدها فدعت الضرورة الى الشبع منها فحين رآني فيها ممعناً وعلى اكلها مقبلاً تبين الغضب في وجهه فاومأ الى الغلام برفع الطبق فظن الغلام انه يستدعي منه الحلوآء فقدم جاماً فيه فالوذج صبيغ اللون محكم العقد فازداد غضبه وكاد يملأ الجام بتسكاب دموعه وقال اعوذ بالله من سوء ما جرت به المقادير اعلم يا سيدي انه ليس الآمر بالخير باسعد من المطيع له ولا الناصح اولى بالنصيحة من المنصوح له فاسمع نصيحتي واعلم ان الحلوآء مضرة بالاسنان مبثرة للفم واللسان لا سيما اذا اتبعت بالماء البارد فان المأمون شكا وجع اسنانه الى طبيبه جبريل فقال له يا امير المؤمنين امتنع عن الماء البارد بعد الرطب (١)

(١) نضيج البسر الواحدة رطبه

والسكر فقال ويحك يا جبريل لولاهما لما اردتك واي لذة تبقى للسان اذا امتنع الانسان من الماء البارد والحلوآء وخالف جبريل فيما وصف فكان من استنانه ما قد عرف وانا استنزلك عن هذا الجام فان العاقل لا يوءثر اللذة على الصحة فعرفني على ما عزمت . قلت على الاكل والاتكال على الله فقال كأنك ان تركت الحلوآء لا تتكل على الله ثم قال اعلم ان الطبيب واسطة بين الله والمريض والوسط فيه ما في الطرفين ففيه من صفات الله تعالى رحمة ومنحة ومن المريض سؤال ورغبة ففرضهُ العافية ودأبهُ اهدآء النصيحة والتوصل الى صلاح كل نسمة وانشد

لو غضبت روحٌ على جسمها   أَصلح بين الروح والجسمِ
كأنهُ من لطفِ افكارهِ   يجولُ بين اللحم والعظمِ

فلا تسيء فيَّ الظن وتنسبني في هذا القول والفعل الى البخل فانه لا بد من النصيحة لك فلا يثقل ذلك عليك فبالله انني اشتهي كثيراً اللون اللذيذ واؤثره ثم اخاف

غائلته فانهي نفسي عنه ُ وربما غلبتني الشهوة فلا ازال اذكر نفسي بالآلام والاوجاع واحضر بين يدي آلات العلاج ثم قال لغلامهِ ارفع الحلوآء وهات ما عندك فما شككت الا انهُ جام آخر ولون قد تأخر واذا طبق فيهِ كلبتا (١) الاضراس ومكاوي الطحال والراس والنشاب (٢) وصنانير السبل والظفرة وزراقات القولنج وقاثاطير التبويل وملزم البواسير ومخرط المناخير ورصاص التنقيل (٣) ومنجل الثآليل ومخالب التشمير ومحك الجرب ومنشار القطع ومهت (٤) القدح ومجرفة الاذن ومقص السلع وخشبة

(١) الكلبتان بلفظ التثنية الة من حديد يأخذ بها الحداد الحديد المحمى والكلاب حديدة معطوفة الراس جمعة كلاليب

(٢) النشاب من النشوبه وهى ما يعلق به الشيء الواحدة نشابه

(٣) كسر العظام حتى يخرج منها فراشها والفراش جمع فراشة وهى كل عظم رقيق

(٤) الة الهت اى الكسر والفت. والقدح عملية فى العين لاستخراج الماء الازرق

الكتف وحمال الورك ومفتاح الرحم ونوار النسا (١) ومكمدة الحشا ومقدح الشوصة (٢) ودرج المكاحل ومرهمدان (٣) المراهم ودست المباضع فلما نظرت اليها تنغصت بالاكل وتصورت البلاء والسقم فقال لي يا سيدي يجب على الانسان الشكر لله تعالى على الصحة وان يسأله دوام العافية اليس هذا جميعه لاجل الاكل والمضغ أعد لهذا الجسد وانشد

كم دخلت أكلة حشى شره ... فاخرجت روحه من الجسد
لا بارك الله في الطعام اذا ... كان هلاك النفوس بالمعد

ثم قال لغلامه اعفنا من الطعام واعدل بنا الى الطشت والاشنان (٤) فغسلنا ايدينا واخذ مخدة واتكأ وقال هات يا سيدي نتحدث فان ابا علي كان ينشدنا دائماً

---

(١) النسا بالالف المقصورة عصب الورك . والنوار آلة يغرز بها
(٢) الشوصه نوع من ذات الجنب
(٣) لعلها فارسية ويراد بها وعاء توضع فيه آنيه المراهم
(٤) الاشنان (يونانى) الحرض وهو الذى تغسل به الثياب ويسمى بالغاسول قال ابن البيطار عن البكرى هو نبات لا ورق له وله اغصان دقاق فيها شبيه بالعقد

ولقد سئمتُ مآربي فكأنَّ اطيبها خبيثُ
الا الحديث فانهُ مثلُ اسمهِ ابداً حديثُ

وبدأَ الشيخ يتعمد للحديث ويتشجع ويتكلف للنشاط ويتصنع وانشد

وتجلدي للشامتين أُريهمِ اني لريب الدهر لا أَتضعضعُ

فقلت يا سيدي قد تعلقت بذلك المعجون ما دمت على الحمية فاسأَلك أن تعرفني متى آخذهُ وكم مقدار ما اتناول منهُ . فقال ما هذا حجر يحتاج قبل الطحن الى النقر ولانت الى ما يقطع بعض شهوتك احوج منك الى ما يقوي معدتك فاعرض عن هذا وهات حدثني اي شيء تحفظ من النوادر قلت اخبار ابي نواس قال ومن الشعر قلت قصيدة في التطفل قال ومن الابيات في الامثال السائرة قلت قول الشاعر :

نزورُكم لا نُعنِيكم بزورتكم انَّ الكريمَ اذا لم يُستزَرْ زارا
يقرّبُ الشوقُ داراً وهي نازحةٌ من عالج الشوقُ لم يستبعد الدارا

قال فاي شيء عانيت من المهن قلت الطبيخ قال فما الذي قرأت من الطب قلت تدبير الناقه قال فما العلة التي أدتك الى ضعف المعدة قلت الشهوة الكلبية قال فاي شيء أخرجك من بغداد قلت كان بها غلاء ولحقني بها ضرر فاغتاظ ونهض وكان متكئاً فجلس وانشد

بذا قضت الايام ما بين اهلها مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

قلت يا سيدي اذا آيستني من الدواء أفتأذن لي ان اسألك عن شيء مما اجدهُ قال قل وارجوان يكون سؤالاً مباركاً قلت ما السبب في انني لا اقدر على شرب الشراب ولا يلائم معدتي في حال من الاحوال فاعجبهُ ما سمع من قولي وقال هذه عادة ظريفة ان تكون المعدة قويةً على الاكل وعن الشراب ضعيفة

﴿ القسم الثالث ﴾

﴿في نعت مجلس الشراب واللذة وذكر ماجرى من المسائل﴾

فلما آنس الى قولي ضحك واعتقد ان باطن هذا القول

كظاهره فقال لغلامه هات نبيذاً فاحضر طبقاً ونقلاً وخمراً فاخذ القدح وغسله وقال انظر حسن هذا القدح فانه حصل لي من نهب قصر الامارة ايام الفتنة وكان عندي احسن منه ولقلة المعيشة في هذه الشتوة احتجت فبعته وقال

وقد تخرج الحاجات ياأمّ مالك كرائم من ربٍّ بهن ضنينِ

ولكن ايام المشمش لا بدّ ان تأتي ونردّ عوضه لا سيما وشتآؤنا كان كثير الجنائب(١) والمطر وربيعنا هذا شديد الاختلاف والتغير واظنها ان شآء الله سنة وبآئية ثم ملأ قدحه وقال هذه الخمرة التي كنا زماناً نشتهيها وبقراط يقول انها تسكن العطش وتشفي من الم الجوع وفيها عشر منافع خمسٌ منها تتعلق بالجسد وخمسٌ بالنفس فاما التي تتعلق بالجسم فانها تجيد الهضم وتدر البول وتحسن اللون وتطيب النكهة وتزيد في القوة واما التي تتعلق بالنفس فانها تسرّ النفس وتقرب الامل وتشجع القلب وتحسن الخلق وتقاوم

---

(١) جمع جنوب وهي ريح تخالف الشمال

البخل ثم شرب وقال لغلامه امضِ الى تلميذي ابي جابر
الفاصد وادعهُ ومعهُ عودهُ وجز بصديقينا ابي ايوب الكحال
وابي سالم الجرائحي وقل لابي موسى الصيدلاني بحياتي
عليك الا جملتنا في هذا اليوم من احد زبونك فما كانت
هنيهة حتى حضر القوم فسلموا فرددنا عليهم السلام
وسألوا عني فاخبرهم بحالي ثم بدأ القوم يشكرون مايقاسونهُ
من المعيشة ويتذاكرون ما بقي من الصيدلة فرأيت قوماً
قد لاذوا بالادب الا ان السوقية عليهم اغلب فسكتوا
ساعة ثم اخذوا في الكلام في مسئلة فقال الشيخ اليوم
خمرٌ وغداً امرٌ ما فينا اليوم قرآءة ولا تدريس لان العلم
الدائم يكدُّ النفوس وجالينوس يقول ان العلمآء محتاجون
الى ان يتركوا التفكر وقتاً ما لئلا ينهك قواهم واجسامهم
فان الاجسام آلة القوى والافعال ثم ملأ القدح وقال
لتلميذه اعلم ان القدمآء يقولون ان العود مبني على الطبائع
الاربع وان الضرب من المغني يجري مجرى المبضع من

الفاصد والاوتار كالعروق ووجه العود كالاعصاب فاياك ان تضرب ضرباً يقع ايقاعهُ خارج الاوتار واعتمد ما سمعت مني وشاتَ تغني بشعر ابي نوءاس في استاذنا جبريل الطبيب فضرب الغلام واندفع يغني منشداً

سألتُ اخي ابا عيسى وجبريلُ لهُ الفضلُ
فقلتُ الراحُ تعجبني فقال كثيرُها قتلُ
فقلتُ لهُ فقدّرها فقال وقولهُ الفصلُ
وجدتُ طبائعَ الانسا ن اربعةً هي الاصلُ
فاربعةٌ لاربعةٍ لكلّ طبيعةٍ رطلُ

ثم بسطهُ

اعدلا بي عن دارسات الطلولِ وقفا بي في المربع المجبولِ
واسقياني على تصاخبِ اوتارٍ م جرى بينهنّ خفق الطبولِ
ثم جسّ الاوتار ويكَ بلطفٍ جسّ بقراطَ نابضاتِ العليلِ

فطربوا وشربوا كلهم الا انا فلما آيستُ من الشراب بدأتُ اعمل في اكل النقل فقلت له ان انفع الانقال لي ما هو يا سيدي فقال ان المتوكل سأل جبريل عن انفع الانقال

فقال له نقل ابي نوأس يا امير المؤمنين فقال وما هو قال

مالي َ في الناس ِ كلهم مثلُ ماَيَ خمرٌ ونقليَ القبلُ

هذا قالهُ جبريل للمتوكل وهو صحيح ما به ِ ما بك قلت صدقتَ الا ان هذا يصفهُ جبريل للمتوكل وفي مقاصيره اثنتا عشرة الف جارية فانا يا سيدي على ما اعتمد في هذا النقل أعلى الشيخ ابي ايوب الكحال ام على ابي سالم الجرائحي فغاظهُ هذا القول مني وقال أليس ذكرت انك طبيب قلت بلى ثم قال اي شيء تعاني من اجزآء الطب قلت الطبائع

القسم الرابع

في اعتبار الطبائعي بمسائل توضح فضلهُ وتظهر جهلهُ

قال أسألك عن مسئلة قلت افعل فبدأ وانشد :

أعذني ربِّ من حَصَرٍ وعيّ ٍ ومن نفس ٍ اعالجها علاجا

ومن زلاَّت نفسي فاغفرها فاني لا اطيقُ لها لجاجا

ثم عاد وقال اسألك عن مسئلة قلتُ افعل فقال الشيخ لا

تظن اني اسألك لمَ صار الحبشة والصقالبة وبلادهم مختلفة وطبائعهم متضادة يغتذي كل منهم بالاغذية الحارة اليابسة ويشربون الخمور ويتغلفون بالمسك والعنبر ووجب ان يجري الامر فيهم على خلاف ذلك التدبير فهذا مما لا اسألك عنه لانهُ مقول بالجواب ان الحبشة يستعملونهُ غذآءً والصقالبة يأخذونهُ دوآءً لئلا يلزم ان تستعمل انت مثل ذلك في الصيف والشتآء ولا اسألك ايضاً عن الخنزير وهو من اعدل الحيوان وغذآؤُه يجب ان يكون اعدل النبات ونراه يغتذي باخبث فضلات الانسان لان هذا من المسطور المذكور ولا اسألك ايضاً عن القدمآء لمَ قسموا البلغم من طعومهِ ولمَ جعلوا الزجاجي والمسيخ احد اقسامهِ وليس لهُ طعم كاحد اصنافهِ ولمَ قالوا ايضاً انهُ بارد وهو أحرّ من الدم في الهضم الثالث ولا اسألك عن الولادة هل هي طبيعية وقد جمعت اجناس الامراض الثلثة ام هي ليست بطبيعية وهي اصل الافعال الطبيعية والانسانية

لكني اسأَلك واقول لك ربما نام الانسان وهو حاقن فرأى كأَنهُ يبول فلا يبول فانتبه وقد حفزهُ البول للخروج فنهض وبال قلت نعم قال فما الذي منع البول من الخروج مع حدته وادآه الى الانتباه على كثرته قلت لا اعلم قال فمن لا يأتي له الكلام في بوله يهجم على انتقال الناس ويأكلها ثم التفت الى الحاضرين وقال صدق انهُ لا يعلم لان البطنة تذهب الفطنة. والله لو اكل ما اكله بقراط لاضحى يعتقد ان القوة العاقلة في المعدة. ثم قال لي يا مبارك الناصية اذا لم يتشاغل الطبيب بمسائل الاطباء وتواريخ القدماء والبحث عن غوامض الكتب البقراطية وتفاسير الست عشرية وعلل البحارين الشمسية والقمرية وعن النماء وهل هو من خواص الاعضاء المتشابهة الاجزاء ام الآلية وعن النبض غير المنتظم في نبضة واحدة وفي نبضات كثيرة والا فبماذا يشغل نفسهُ أَبأَخبار المخنثين والمغنين وطيب لحن ابن شريح وترنم معبد ونوادر بدعة الكبيرة واهزاج سريرة

الراقصة وايقاع مزاحم الرقاص ؟ واذا لم يرض نفسه في كتب النسخ والدساتير وتحرير الادوية على موجب القوانين والاقباذين اي شيء يمتني : أ بكتابة رقعة تتعلق بالعاشق والمعشوق ووصف القدود والخدود . والعيون وكسر الجفون ، والجبين والانين ، وفرقة القرين ، ولوعة الحزين . وطيب التلاق وشكوى الفراق ، وحلاوة الوصل ومرارة البين ربما الحق قيساً مع لبنى والمجنون بليلى وجميل ببثينة قلت يا سيدي لست طبائعياً قال فانت ماذا قلت انا كحال فقال هذا شيء يتعلق بشيخنا ابي ايوب

القسم الخامس

في سؤال الكحال عما لا يسعه جهله

فقال لابي ايوب اشرب هذا القدح واسأله ثم اخذ القدح وتأمله ورفعه وقال هذه والله كما قال الشاعر

وكأنَّ الزجاجَ قطرةُ ماءٍ ... جمدت والعقارَ شعلةُ نارِ

هات بالله يا سيدي غن صوت استاذنا ابي اسرائيل الكحال

فاندفع وغنىّ

قالوا اشتكت عينهُ فقلتُ لهم من شدَّةِ القتلِ مسَّها الوَصبُ
حمرتها من دمآءِ من قتلت والدمُ في النصلِ شاهدٌ عجبُ

ثم هزجه

مريضُ الجفونِ بلا علةٍ ومكتحلُ الطرفِ لم يكتحلْ
شكا حسنهُ قبحَ افعالهِ فأثَّرَ في وجنتيهِ الخجلْ

فشربت الجماعة كلهم دوني ثم قال لي ابو ايوب لو ان رجلاً برخشياً «١» كحل عين حمارك على غير تلم منك فاعماها وادعى ان بها سدَّة ثم شارطك على برءها فكحلها بدوآء عاد بصرها به أتعرف الدوآء الذي يبقي طبقات العين ورطوباتها ويمنع النظر بها والدوآء الذي يزيل ذلك الدآء في الحال عنها فقلت لا فقال صاحب الدار يا أَرمد البصيرة اعتقدت انه يسألك عن الظفرة متى تكون مرضاً ومتى تكون سبباً او عن جالينوس لمَ ذمَّ العين الصغيرة ومدح

(١) اى من الغوغاء وهم اخلاط الناس

الحدقة الضيقة اللهم غفراً يا سيدي في اي شيء افنيت ايام الحداثة اظنك قضيت الزمان في محبة الصبوح والغبوق ومعاشرة الاخوان وتحديد القيان ومعرفة اسماء الخمر وتعديل نايات الطبل وتعبئة المجالس واصلاح المشام وتفريع الاترنج وحشو التفاح وترتيب الاوتار وشد ازيرة «١» العيدان على مقادير الالحان واصلاح الطبقات في ثقيل الاول وخفيفه والرمل وخفيفه والهزج بالوسطى والسبابة والبنصر . يا سيدي ما هذا والله مما ينفع الطبيب في طبه ولا المريض المسكين في ازالة مرضه قلتُ ما انا كحال قال اراك تدعي صناعة وتجحد اخرى كأنك تقدم غضارةً «٢» وتبعد اخرى هات عرفني اي شيء انت قلت انا جرائحي قال هذا شيء يتعلق بالشيخ ابي سالم

---

(١) جمع زير وهو الدقيق من الاوتار

«٢» الغضارة القصعة الكبيرة

القسم السادس

﴿ في اعتبار الجرائحي بمعرفة التشريح والمنافع ﴾

ثم قال لابي سالم اشرب هذا الدور واسأله ثم التفت الى الساقي وقال لهُ ناوله فاعطى لابي سالم فشرب وانشدوا

جدْ بماء المزنِ والعنبِ كاشفاتِ الهمّ والكُرَبِ
قهوةٌ لو انها انتسبت ساجلت قحطانَ في النسبِ
فهي تكسو كفَّ شاربها دستاناتٍ من الذهبِ

فملأ الساقي القدح واعطاهُ فقال لابي جابر غنِّ لي صوت استاذنا ابي الحسين بن نفاح فاندفع يغني :

كلُّ جريحٍ ترجى سلامتهُ الا فؤاداً دهتهُ عيناها .
تبلُّ خديَّ كلما ابتسمت من مطرٍ برقهُ ثناياها

فشربوا ثم ملأوا الاقداح فهزجهُ

تأوُّهي من حرّ نارِ الهوى قُتِلتُ حتى لم يجد مقتلا
تأوُّهي من جسدي كلهِ فصل مني مفصلاً مفصلا
ارى المعافى يعذلُ المبتلى يا رب ذا العاذلُ ما يبتلى

فشربت الجماعة ثم اوماً اليَّ وقال يحتاج الجرائحي ان يكون
عالماً بالتشريح ومنافع الاعضاء ومواضعها ليجتنب في فتح
المواد قطع الاعصاب واطراف العضل والاوتار والالياف .
ثم قال كيف معرفتك بالتشريح قلت على غاية الكمال قال
كم هي الياف المعدة قلت ثلثة قال وما هي قلت واحد
موضوع طولاً به تجذب الغذاء وآخر يمضي عرضاً به
تمسك الغذاء وآخر وراباً به تدفع الغذاء . قال فان قال
قائل لا بل الدفع بالموضوع عرضاً والمسك بالموضوع طولاً
والجذب بالماضي وراباً بماذا تجيبهُ أترى هذا مما يقوم
لك عليه برهان او تظهر لك صحتهُ من العقل والتأثير قلت
لا فقال صاحب الدار انا والله نظلمه . من أكل ذلك الاكل
لا يجيب عن هذه المسائل . ثمَّ قال ابو سالم أحسبك انك
اعتقدت اني اسألك عن الجراحات المدورة في المفاصل
المتحركة لمَ لا تلتحم بسرعة وعن علة الضرس النابت في
سن الشيخوخة وعن الفرق في البنية بين الاناث والذكور ماهذه

مسائل تضيق افاضل العلماء عن جوابها ثم التفت الى الحاضرين وقال قد حصلنا من هذه الصناعة على تدوير العمامة وتحرير الشابورة «١» وسعة الدرّاعة وعظم الخاتم وانفشر عند العامة اذا غاب الفضلاء وقول السوقة يا فلان أما ترى ذا؟ من اين مثل هذا؟ ومن يسمع من غيره هكذا؟ لاسيما اذا اخذ الكتاب بيدهِ وفتل شاربهُ واما رأسهُ واوما بيدهِ عند قراءتهِ فمن الحواريون في اقامة الموتى وابراء الزمنى؟ ومن بقراط في طبهِ؟ وارشيميدس في حيله؟ واقليدس في هندسته؟ واذا فاتحتهُ بالعلم وجدتهُ عارياً مما انتحلهُ عاطلاً مما تحلى بهِ وانتمى اليهِ وعول في المعيشة عليهِ: فهو كما قال الشاعر

فاذا ساجلتهُ في علمهِ قال علي يا خليلي في سفطْ
في كراريس جياداً أُحكمت وبخطٍ اي خطٍ اي خطْ

«١» لعلها السابورة بالسين من سابور وهي كورة في بلاد فارس ينسب اليها السابري" وهو ثوب رقيق جداً. وتحرير بمعنى ضبط

فاذا قلت له هات اذا حك لحيته جميعا وامتخط
واذا اخبر عن شيء ترى فاتحا فكا ومنه قد خلط

لاسيما الواحد منهم اذا شد العضد وفصد ومسح الميل وكحل ونظر الى القارورة وحرك رأسه فقد وفى الصناعة حقها وعرف علمها وعملها وقال لقد احكمتها والصواب التشاغل بعلم غيرها وينسى «قول بقراط العمر قصير والصناعة طويلة» هذا والساعات طائرة والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق والاوطار في الايام تجتمع وتفترق والنفوس على قوانيها تذوب وتحترق . فان اتفق لهذا الجاهل ان يحضر مع طبيب قد اسهر ليله وكد نفسه فيما يحتاج اليه في مناظرته لم يحصل منه على اكثر من المهاترة والمكابرة والاعتضاد (١) عليه بالنساء والعامة والشفاعة الى المريض برقاع الاصدقاء الى ان يصرف ذلك الطبيب

(١) الاستعانه «ما ابدع ما وصف به المحرقين بصناعة الطب المعروفين عندنا بالدجالين» وسيأتى الكلام عليهم فى التكملة

ثم لا يزال معه في طبه ماضياً على سنته الى ان ينبت المرعى على تربته فاذا سئل عنه بعد موته قال ما كان يمكن ان يعيش لان المرض كان مهلكاً والقوة ساقطة وما على الطبيب الا الاجتهاد وليس في قوة الصناعة شفاء كل مريض ولو كان كل مريض اذا استطب برأ لما مات احد ولكن الآجال مقسومة فما الحيلة ولا حيلة في الموت ولا قدرة لنا ان نزيد في الاجل ولعمري انه كان حراً ويعز عليّ والله فقده ولكن الانبياء ماتوا وما يبقى احد ويخرج لهم في فتاوي احمد بن حنبل ويستطرد بمخالفة المريض وغلط الطبيب الاول فان سئل عما تجدد له تنهد وانشد

أخنى عليهِ الذي أخنى على لُبَدِ (١)

وان قُدر ان يتأتى له برؤ قال لقد خلصته من فك الاسد ورددته من شفير القبر ويرى انه حلّ العصابة

---

(١) لبد آخر نسور لقمان والشعر للنابغة وصدر البيت

أضحت خلاء وأضحى اهلها احتملوا

من لحيته ونزع يد الغاسل من يده وجذب ناصيته من منكر ونكير وقد بدأ بمسائلته ثم قال مالي اراك مطرقاً ملياً قلت لاني لست جراحياً فاغتاظ من تنقلي في الصنائع وقال .

اظنك من بقية قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

قلت ياسيدي عادتي اغتذي ثلث دفعات في اليوم قال دع هذا عنك فما هذا اردت هات عرفني اي شيء انت قلت فاصد

القسم السابع

﴿ في امتحان الفاصد في ما يحتاج الى معرفته من المنافع ﴾

قال هذا شيء يتعلق بفتانا ابي جابر فالنوبة معه فقال ابو جابر لصاحب الدار يااستاذ اسألك ان تنوب عني في مسائلته وانا اعوضك عن ذلك بان اغني لك شعر شاجي لما اهدت جاريتها للمتوكل يوم فصاده قال افعل فاندفع الغلام وغنى .

فصدتَ عرقاً تبتغي صحةً البسكَ اللهُ به العافيه
فاشرب بهذا الكأس ياسيدي مستمتعاً من هذهِ الجاريه
واجعل لمن اهداكها زورةً تحظى بها في الليلة التاليه

فصاح وطرب وشرب ثم ملأوا الاقداح فهزجه

ويحَ الطبيبِ الذي جسّت يداه يُدَكْ ما كانَ اخبره فيما بهِ اعتمدك
لو أنَّ الحاظَهُ كانت مباضعهُ وقد نحاكَ بها من رقةٍ فصدك

فصاح وطرب وشرب وملأوا الاقداح فلما شربوا سكتت الجماعة فقال الشيخ كان لملوك اليونان عادة وذلك انهم لا يعلمون صناعةً لانسان الا بعد تأمل مولده لان المطبوع في كل امرء هو الذي يكون دليل ذلك الشيء قوياً في مولدهِ والذين لا مولد لهم يدخلونهم الى بيت فيه صور الصنائع فما تحركت اليهِ طباعهم ومالت نحوهُ نفوسهم واشرأبت اليهِ قلوبهم اخذوهم بتعلمهِ لقولهِ « وكل امرءٍ يصبو الى ما يجانس » وجالينوس يستدل على همة الصبي من لعبه مع اقرانهِ في اللعب وهل يؤثر ان

يكون ملكاً عليهم او خادماً لهم فان الشخص تسمو نفسه في ذلك الوقت بحسب الغالب عليه في طباعه اذا كانت الروية (١) مغمورة بالطباع الحيواني ولما فسد هذا النظام صار كل عطار يتصدّى انظر القوارير (٢) والكلام على الطبائع وتنفيق ما كسد عنده من الحوائج ولاسيما اذا اضاف الى طبه قرطاساً فيه نشادر وخضاب وغسول وكايكان (٣) وحب العروس (٤) وان شمشاء تحلف لسكينة بالمصحف ان ليس في العالم احسن من طبه وهو مع هذا ربما طبخ ماء الشعير وانكب على نفخ الدخان ولا يعلم المسكين ان الفاصد يحتاج ان يعنى بعينيه بمداومة الاكحال الجالية وشرب الحبوب المنقية .

---

(١) الروية النظر فى الامور بعد الرؤية وقبل العزيمه

(٢) جمع قارورة ويراد بها الوعاء المستعمل لفحص البول قال بعضهم يمدح ابن قرة الطبيب

مثلت له قارورتى فراى بها ـ ما اكتن بين جوانحى وشغافى

(٣) من انواع الكراث (٤) هو الكبابة نبات عطرى

تالله انني ما اعلم من المرحومُ آلفاصد المدفوع الى ما
ليس من عمله ام المفصود المغرور الذي يوقع يدهُ بيدهِ
فيتحكم في عرقهِ وعضدهِ ، ثم قال لي اسألك قلتُ
سل عما بدالك قال . لا تظن انني اسألك عن العلة التي من
اجلها صار بعض العروق يفصد طولاً وبعضها عرضاً
وبعضها ورباً فذلك معروف ولا اسألك ايضاً لِمَ صار
منفعة فصد الاسيلم (١) في بعض الامراض اكثر من
الباسليق (٢) وهو طرفهُ وشعبةٌ منهُ ولا عن الشروط
التي تلزم الفاصد وقت فصادهِ وقبلهُ وبعدهُ ولا عن
العروق التي حصلت معرفتها بالقياس والعروق التي
عُرفت بالتجربة والتي أدركت على جهة الوحي في
المنام فذلك مما يعرفه فأر البيمارستان ولا اسألك عن
عرق الجبهة اين يطلب في الصبيان وعرق اليافوخ اين

---

(١) وريد بين الخنصر والبنصر
(٢) وريد فى ثنية المرفق يستعمل الفصد فيه عادة

يوجد في الرجال ولا اسألك عن الدم الاحمر الذي اذا طرح عليه المآء اسودَّ والاسود احمرَّ بل اسألك عن العلة التي من اجلها يكره الاستفراغ بالفصد في امتلآء القمر و الدم من استهلاله الى ابداره في ابدان الحيوان اغزرُ منهٔ في زمان محاقه أتعلم ذلك قلت لا . قال أفتعرف الفوائد الثلث في شدّ العضد قبل الفصاد قلت لا قال . ألا تعرف اول من نبه على الفصاد واختياره لمداواة الامراض قلت لا . قال فانت من عمرك تنهك اعراض الموائد وتحبب الناس بالاكل وتأكل وتنام وتتاوى في المسائل كانك عرق زوّال (١) تحت مبضعٍ مصدّءٍ وقد حصلنا من هذا الفصد معكم على شق العروق واخذ الفضة وشهادة العامة ان فلاناً يفصد جيداً ويدهُ خفيفة والواحد منكم لا يعلم انه إن ضرب شرياناً نزف الدم الذي يتبعهُ الموت وان ضرب عصباً

(١) الذي يتحول

ابطل الحركة والحس وشنج اليد وان ضرب عضلةً
جذب المواد الخبيثة الى العضو * بطات والله هذه الصناعة
وصارالحذق في الفصد مسك العضد وغوص الشدوعصر
العروق حتى يهراق الدم وعصٌ (١) المصابة وتربيع
الرفادة وترك المبضع تحت العمامة فما يعرفون غير اهراق
الدماء واخذ الكراء فلو ان انساناً ضاعت حمارته او وقعت
دراعته (٢) لما اشرتم عليه الا بفصده واهراق دمه
ثم قال لي ارني مباضعك فاخرجت اليه دست المباضع
فتأمله وقال اين المدورات والشفرات والمزويات (٣)
والحربات واين فأس الجبهة وصنارة الصدغ والدواء
القاطع للدم قلت ما معي من هذا كله شيء قال فأرني
لطف انا ملك فلما اخرجت يدي قال ما هذه انامل تصلح

(١) اى شدها
(٢) الدراعة جبه من صوف
(٣) المزويات اى ذوات الزاويه

لجس العروق ولا هذا زندٌ يقدح جواب هذه المسائل قلت لست قاصداً قال فانت ماذا قلت صيدلاني

القسم الثامن

في اعتبار الصيادلة بمعرفة العقاقير والادوية

قال هذا يلزم شيخنا ابا موسى فقال لابي موسى اشرب هذا القدح واسأله فملأوا الاقداح ورفع ابو موسى قدحهُ وقال ما احسن ما قال فيها ابن المعتز

وراحٍ من الشمس مخلوقةٍ بدتْ لك في قَدَحٍ من نهارِ
هواءٌ ولكنهُ راكدٌ وماءٌ ولكنهُ غيرُ جارِ

ثم التفت الى الغلام وقال بالله غنِّ صوت استاذنا احمد بن قرابة فاندفع يغني

لما لممتُ باصحابي وقد هجعوا حسبت حتى رحال القوم عطّارا
فقمتُ من ذا الحيا وانتبهتُ لهُ قالوا الحبيب الذي تهواهُ قد زارا
قلت انزلوا نعمتْ دارٌ بقربكمُ اهلاً وسهلاً بكم من زائرٍ زارا

فلما شربوا قال ابو موسى لستُ اسألك عن

الادوية التي تستعمل لوقتها والتي تستعمل لشهرها والتي يؤمن استبقآؤها وان تقادم عهدها لأَن هذا معروف ولا اسألك عن الدوآء التفه الذي اذا طرح على الخل حلا . ولا عن الدوآ الذي اذا طُرح على الحلو حمض ولا عن الشيء اليابس الذي اذا القي عليهِ الربوب اماعها ولا عن المائع الذي اذا طرح عليه المآء جمد فذاك معروف بل أسألك عن الحجر الذي اذا أدني الى ضوء السراج يضمحل . وعن البدور القمرية . وعن السنباذج (١) الصيني . والساذج (٢) الهندي والتوتيا الحشري (٣) وعن منابت العقار بحسب فصول الزمان أتعرف ذلك قلت لا قال أتعرف الحنظل قلت نعم قال

---

(١) حجر كانه مجتمع من رمل خشن معدنه في جزائر بحر الصين .

(٢) نبات شبيه بالناردين

(٣) لعله بالنسبه الى الحشر وهو النخالة او تحريف الحجرى

أفتعرف الانثى من الذكر قلت لا . قال أفتعرف ما منهُ دوآء نافع فتأخذهُ وما منهُ سم قاتل فتطرحهُ .قلت لا قال أفتعرف الاسفنج ليس البحري ولكن النباتي قلت لا قال أفتعلم متى يؤخذ زبل الذئب وبعر الضب قلت لا . قال أفتعرف الشيء الذي تغير الطبيعة طعمهُ وتبقى عليهِ لونهُ والشيء الذي تغير لونهُ وتبقى طعمهُ والشيء الذي تغير طعمهُ ولونهُ وبالضد . قلت لا قال أفتعرف الحجر الذي يراه الناظر ابيض فاذا ادام النظر رآهُ احمر فاذا ادامهُ جداً رآهُ بنفسجياً فان زاد النظر رآهُ اسود مظلماً قلت لا قال أفتعرف الدوآء البسيط الذي يجد اللسان منهُ حلاوة ومرارة وحموضة وملوحة معاً قلت لا . قال الشيخ يايبروح صنمي (١)ما هذه من مقاماتك هذه من مقامات ديسقوريدس الذي قد بدلنا منهُ بقطاعي الشوك وباعة

«١» اليبروح اصل اللفاح البرى ويعرف عندهم باليبروح الصنمى لانه يشبه صورة الانسان

الفودنج(١) ها انتم تلعبون بمهج الناس . تعزّ عليّ هذه الصناعة قلّ الواصف لها وعدم العارف بها فتحامى التجار جلب العقار وبقينا من صناعة الصيدلة على البراني المصففة والصواني المزوقة والدكاكين المزخرفة والالواح المرندجة (٢) والموازين والمكاييل والمصافي والطباشير وصارت العناية كلها بالحناء الجيد وماء الورد الطيب والخضاب الحالك والغسول الاحمر والقلي والنوشادر والحارود(٣)ودخنة مريم وان تقول شمثاء الماتكةما في الدنيا مثل دخنة ابي الحسين العطار وتقول عليا القابلة ومن اين مثل قشوته (٤) وتقول سكينة الماشطة ان

«١» نبات هو اللبلابه بعجميه الاندلس وعامه مصر تسميهقليه واهل الشام يسمونه الصفر .عن ابن البيطار.

«٢» المدهونه بالاسودمنالبرندجوالارندج وهو السواداوالزاج

«٣» هو اسم الحيوانالذى خصاه الجندبادستر

«٤» قفه خوصلعطر المراة

عندهُ دهن العافية شيءٌ ما في الدنيا مثلهُ ويحلف ان ما في العالم مثل حوائجهِ لا سيما اذا قالت لهُ كم ثمن خمس دراهم فشار فيعطيها ويزيدها ويحلف انهُ لا يأخذ ثمنه منها ويرسلها وقد جعلها شبكةً من شباك المعيشة فلا يبقى حمام ولا مجلس قاضٍ ولا سوق غزلٍ ولا دكان قطان الا والحديث كلهُ صفة ابي الحسين العطار . فلما استوفى كلامهُ عجزت عن الجواب ورأيت ان مسالمتهُ من الصواب فقلت ياسيدي الحكماء يقولون ان لكل فضلٍ زكاةً فزكاة المال الصدقة على الفقير المحتاج وزكاة القوة المدافعة عن الضعيف المظلوم وزكاة البلاغة القيام بحجة من عجز عن حجتهِ وزكاة الجاه ان يعين بهِ من لا جاهَ لهُ وزكاة العلم التعليم لمن قصر علمهُ واذا وجب على المال زكاةٌ وهو ينقصهُ الانفاق فهي اوجب على العلم الذي يزيدهُ الانفاق وقد قيل العلم كالشعر كلما حلقتهُ كان اقوى لنماءهِ فان لم تحلقهُ فان لهُ مقداراً محدوداً ان قصَّ عاد اليه

وان تركه لم يزد عليه فهل لك ان تعرفني جواب هذه المسائل قال الشيخ من يمنع الحكمة طلابها كالذي يمنع الظمآن الماء البارد العذب ومن يعرض الحكمة على غير طلابها كالذي يعرض على الريان الماء الحار المالح وانا اعرفك جواب هذه المسائل بعد ان تعرفني اي شيء تنتحل من الصنائع فبالله اني اورد عليك كلاماً كالوشي المحبوك والذهب المسبوك قلت انا رجل جئت بكتب الى اهل هذه البلدة قال انت من طب الرقاع والرسائل والتفت الى القوم وقال هذا مثل فتانا قلت ومن هو

القسم التاسع

﴿ في غيرة الاطباء وتغايرهم على المرضى ﴾

قال فتى حدث نشأ عندنا يعرف بخاروف ابي الوفا امسى في بعض الليالي معافى واصبح يدعى انهُ حكيم.

قالت لهُ النفسُ كنْ طبيباً تقضي على الناس بالذهابِ

تأخذُ مالَ العليل قهراً ثم تؤاتيهِ (١) الى الترابِ

اعاذنا الله واياكم من سوءِ ما تجري بهِ المقادير على يديهِ فهو الآن يلبس الدبيقى (٢) المقلم والمقصب المذهب والخواتيم اليشب والفيروزج ومع هذا فوالله انني ارحمهُ

وحسبكَ من حادثٍ بامرءٍ ترى حاسديهِ لهُ راحمينا

لان هذا اللباس يبغضهُ الى الناس ويحملهم على غيبتهِ حتى يتكلموا فيه بما انا احلف انهُ لا يتجاسر عليهِ ولا يمد يدهُ اليهِ ولكنهُ لا يرضى لنفسه ان يكون مثلنا نحن الاطبآء الذين رضينا من الثياب ما نَاب مناب الريش للطائر ومن الشماشك (٣) ما ناب للحيوان مناب الحافر هذا انفع وذاك اطيب ولكن اللعب الى آخرهِ ياسيدي هذه عادة القدمآء وزهاد الاطباء وكل ما لا يشبه اربابهُ

«١» تسوقه

«٢» بالنسبه الى دبيق بلد بمصر

«٣» جمع شمشك وهو من ملابس الرعاة

مسروق ونحن اعزك الله اصحاب ثروةٍ وعافية ما علينا من غيرنا ولكن اذا رأى البائس الفقير طبيباً كأنهُ وزير فكيف يتجاسر عليه او يمد يدهُ اليهِ او يجسر يريهِ نفثهُ وبولهُ وبرازهُ ولكن هو بعدُ حَدثٌ ما يحسن يداري عيشهُ ومن المعلوم ان ذا العقل لا تبطرهُ منزلة اصابها وان عظم امرهُ كالجبل الذي لا يتزلزل وان اشتدت بهِ الريح والسخيف تبطرهُ ادنى منزلةٍ كالحشيش الذي يحركهُ ادنى ريح فان الادب يُذهب عن العاقل السكر ويزيد الاحمق سكراً كالنهار يزيد كل ذي بصر بصراً ويزيد الخفاش عماءً . بالله انني اعجب اذا قالوا ان فلاناً قد صار طبيباً وكنت اعهدهُ يتيماً فلما ترعرع ماشى كسير وعوير (١) فشهدا لهُ بالجندية والركوب والفروسية الى ان مضى على ذلك برهةً فما احسستُ بشيء حتى تصدر بعمامة وصقل

«١» بصيغه التصغير كنايه عن قرين السوء يقال له كسير وعوير وكل غير خير

فلا يتعدى وصف البزور والسكنجبين وآخر يزهو بجهله على غير علم كالوارم الذي يتظاهر بالشحم وهو لشدة ما يقاسيهِ في جهد وانشد

وقد يلبس المرء خير الثياب ومن دونها حالة مضنيه
كما يكتسي خدهُ حمرةً وعلتها ورم في الرئة

ولهذا قال جالينوس الجهل بالجهل جهل مضاعف وهب سلمنا لهُ بالعلم ماذا ينفعهُ بلا عمل فانهُ يقال ليس شيء اهلك للمريض من طبيب يحسن القول ولا يحسن العمل فان صاحب العمل وان قصر به القول في مستقبل الامر فسيبين فضلهُ عند الخبرة وعاقبة الامر وصاحب القول وان اعجب ببديهته وحسن صنعته لا يحمد غب امرهِ . وان الطبيب الذي يعول في مداواة الامراض والمرضى على تنميق الكلام واقامة المعاذير يريد هلاك المريض من دون التدبير السديد كالذي يشرب السم اتكالاً على ما عندهُ من الترياق . فقد بان ان حسن العلم لا يتمُّ الا بالعمل واذا

عرف المريض دواءَ مرضهِ عند ما كان صحيحاً ولم يتداوَ به لم يغنهِ علمه بهِ في صحتهِ ولم يجد له راحة ولا خفاءً وبالضد ثم التفت الى تلميذه وقال قد شغلنا عن لذتنا بنبذة من ذكرهِ هات قدحي فملأوا الاقداح واقترح على المغني

قالَ لي عاذلي ولم يدرِ ما بي　　اتحبُّ الحياة ما عشتَ حقَّا
فتنفستُ ثم قلتُ لعمري　　قد جرى في العروق عرقاً فعرقا
قد لعمري ملَّ الطبيب وملَّ　　م الاهلُ مني مما اقاسي والقى
ليتني متُّ واسترحتُ فاني　　ابداً ما حييتُ فيها مُلقًّى (١)

فغنى وشربوا وطربوا وضرب الغلام هزجاً بهذه الابيات

يا ممرضي بمغيبهِ　　ومعذبي برقيبهِ
يا مانعي بصدودهِ　　حلوَ المنام وطيبهِ
لِمْ لا تجودُ لعاشقٍ　　اسرفتَ في تعذيبهِ
اعيا الطبيبَ دآؤهُ　　فبكتهُ عينُ طبيبهِ

فصاح صاحب الدار وقال هذا وملحم الخروق

---

(١) اى لا يزال يلقاه مكروه

ومجرى الدم في العروق لو كتب بالإبر على البصر لروئي احسن منظر فنهضت الجماعة وشربت قياماً ساراً (١) لصاحب الدعوة • فتقدمت اليه منتهزاً للفرصة وقد هزته الاريحية وقلت هل لك ياسيدي ان تسقيني قدحاً ادفع عني به ضرر المضيرة وتشركني والجماعة في هذه المسرة فقال ان كنت مستحقاً له قلت وبماذا اكون مستحقاً له قال بان تخبرني عقيب اي حركتي التنفس تشربه أعقيب حركة الانبساط ام عقيب حركة الانقباض؟ فاذا شربته اي حركة يتحرك القلب بعدها أضد ما قطعت عندها ام مثلها؟ فذهبت امسك نفسي لانظر ما هو الجواب وقال لي ما اشبه هذا منك الا بما حكاه ابن قتيبة في ادب الكاتب عن الذين لما سئلوا عن عدد الاسنان جعلوا ايديهم في افواههم ليعدوها ثم قال هذا

(١) السار المفرح ولعلها اللفظة التى طالما بحث عنها الادباء ليستعملوها فى التعبير عما يكون فى الولائم والمادب عند الشرب وقد استعمل بعضهم لفظة النخب فقال شرب نخبه والعامه تقول شرب سره

وما سألتك متى يكون نبض الجنين موافقاً لنبض الحامل ومتى لم يكن موافقاً ؟ ولا عن الانقباض أهو اقدم من الانبساط ؟ ولاعن العلة التي من اجلها اذا فتح الانسان شفتيه ونفخ نفخاً حاراً فاسخن الاشياءالباردة واذا ضمهما ونفخ نفخاً بارداً فبرّد الاشياء الحارة ؟ ولا عن العلة في ان النفخ البارد يلهب النار الكثيرة ويطفيء النار القليلة ؟ ولِمَ صارت حركة الشرايين والقلب واحدةوحركتهما وحركة التنفس مختلفة ؟ ثم قال لي أتعلم شيئاً من ذلك قلت لا قال أفتعلم ان منفعة الانبساط بالذات ادخال الهوآءِ البارد وبالعرض مصُّ الاشيآء المايعة كالماء والشراب والمرق والنقاعة (١) والتنخع وشم الروائح الطيبة ؟ قلت لا قال أفتعلم أن منفعة الانقباض بالذات اخراج الهوآء الحار واعداد هوآء الترويح وبالعرض تصويت الحيوان والكلام والسعال والزمر والنفخ للنار والجشآء والبصاق والفواق

(١) النقاعه من كل شيء الماء الذى ينقع فيه

ودفع الروائح الكريهة والاستنثار(١) وبجميعها يتمّ التثاؤب والضحك والبكاء والتنهد وتنفس الصعداء والتأفف والعطاس؟ قلت لا قال فاشرب قدحاً واحداً على جهة الرحمة لك فملأت قدحاً الى رأسهِ فقال جودت هذا كانهُ خط العلماء بلا هامش قلت ياسيدي هذا الى الخط المستقيم فاغتاظ وقال ياغبي المستدير لا يكون عليهِ خط مستقيم لكن اما دائرة او قوس واخذ القدح من يدي فشربه وقال مجالسة الجاهل حمى الروح وانشد

لا انسَ الا في مجالسَ تلتقي ... بهنائها الاشكال والنظراءُ
ان الجهولَ تضرُّني اخلاقــهُ ... ضررَ السعالِ لمن بهِ استسقاءُ

ومثل ذلك قول المتنبي

واحتمال الاذى ورؤية جانيه م غذاءٌ تَضوَى بهِ الاجسامُ

وما احسن ما قال حكيم الفرس مقاطعة الجاهل توازي صلة العاقل. وبدأ وقد هزته الاريحية وقال أترى من لهذا

---

(١) الجذب

الامر بعدي ذهبت والله الصناعة البقراطية والعلوم الطبية وانقبضت اطرافها وتقطعت اهدابها فشخصها مأووف وطرفها مطروف وصار الطبيب اذا دخل على المريض فهو بين ان يفصده ان بعد عهده ويمنعه الفصد ان قرب عهده به ويسهله ان وقف طبعه ويحبسه ان سهل ويبرده ان سخن ويسخنه ان برد وينعاه اذا رآه قلقاً ويبشر بصحته اذا رآه ساكناً هادئاً كل هذا لانه المسكين لا يعلم ان كثيراً ما يكون القلق اصلح من السكون والاختلاط اصلح من التيقظ وسواد الاطراف اجود من بياضها وان كثيراً ما يستعمل الطبيب الدواء المسهل فيمن طبيعته ممسكة ليسهلها وان كثيراً ما يعالج الحار بالحار والبارد بالبارد ويستعمل مع المرضى ما يضعف الاحساس والقوة

القسم الحادي عشر

﴿ في استهانة العامة بالصناعة الطبية ﴾

ولولا عجز الاطباء عن هذه الامور لما استهان الجمهور

بالصناعة الطبية واستدلوا على نقضها من اراجيز الشعرآء واقوال العامة فضربوا لها الامثال وسحبوا عليها اذيال المقال فواحد يقول

ما للطبيبِ يموتُ بالدآءِ الذي قد كانَ يشفي غيرهُ فيما مضى
هلك المداوي والمداوَى والذي جلب الدوآء وباعهُ ومن اشترى

وآخر ينشد

والناسُ يلحونَ الطبيبَ وانما غلطُ الطبيبِ اصابةُ الاقدار

وآخر يجرد ويقول هذا كله هذيان والذي اعلم ان ابن ثلثين سنة لا يموت ابن عشرين ولا يعلم ان هذه قضية قد قتلت مئة الف قتيل وآخر يقول الموت سبيل لابدَّ منه وانما الطبيب مطيبٌ للقلوب وهذا كلهُ جوابٌ لمن قال ان الطبيب ضامن درك الحيوة وان الطبيب يشفي سائر الامراض وآخر يقول مالي اعذب نفسي بالحمية ها فلان الطبيب ما يزداد بالحمية الاصفرةً (١) ومرضاً ولا يعلم

(١) نحولاً

انه لو لم يحتمِ لمات وواحد يقول انا آكل واشرب واترك التداوي واتكل على الله وقائل ذلك اذا مرض له حمار قبل فيه بمشورة البيطار وكان يجب بحسب رايه ان يتركهُ ويتكل على الله . على ان الطبيب لا يامر بالتداوي وينهي عن التوكل على الله.وآخر يقول كم مرضت وبرأت بلا دوآء ولا يعلم انه لو استطبَّ لكان اسرع في برءه وانهُ سيأتي عليهِ وقت لا تفي فيهِ القوة لدفع المرض ولا يجد من الطبيب معاونة فيهلك . وآخر يقول كم قد تداريت واحتميت فلما خلطت برأت ولا يعلم ان التخليط صادف بالاتفاق فنآء مادة المرض فبرأ وان اناساً كثيرين خلطوا قبل فنآء هذه المادة فهلكوا وانشد

عابَ الطبيبَ اناسٌ لاعقولَ لهم ... وماعليهِ اذا عابوهُ من ضررِ
ماضرَّ شمسَ الضحى والشمسُ طالعةٌ ... ان لا يرى ضوءها من ليس ذا بصرِ

وهذه الطوائف الجاحدة لفضل صناعة الطب اذا سمعت

الطبيب يقول هذا الغذآء يضرهُ كذا يقولون كم قد اكلناهُ وما ضرنا وما يعلمون ان الطبيعة تحامي ما امكنها عن نفسها وتعجز عن المحاماة فتعطب ويقولون ما دام للانسان خبز عند الخباز فما يضرهُ شيء فاذا جآء ابوضابط ما ينفعهُ شيء ويسمون الخبز الحياة ومعطي الحياة الخباز ويكنون الموت ابا ضابط. واذا قيل لهم ان الترياق ينفع السموم قالوا ها الترياق وها الافعى من ادعى فليبرهن واذا ذكر النبض لهم قالوا هاتان امرأتان احداهما حامل والاخرى عاقر عرفونا احداهما من الاخري من نبضهما يريدون من الطبيب ان يعلم من كل شخص ما هو معلوم الله منهُ على الحد الذي لا مزيد فيهِ ولا نقص منهُ ولا يقنعون بما لاح لعينه وتجلى لبصيرتهِ لانهم لا يفهمون ان هذه الصناعة تجيء بالممكن واذا عضدت بالتوفيق كانت كالضروري فليس لان احكامها ليست مدركة ومحاطاً بها في كل شخص يجب ان تكون مرذولة ومطروحة بل

تكون متوسطة بين ادراك البغية وعدمها وليس لان بعض المرضى هلك لا ينبغي ان ينظر في الطب ولا بسبب ان بعض المرضى بريء بالطب وجب ان يعول عليها في البرء ابداً والحكمة توجب توسط هذا الامر حتى يشكر الله من ينجو او تسلم نفسه من الهلاك ولهذا استصعب بقراط القضاء والبتّ بما يؤول اليه امر المرضى . وان رأوا طبيباً يقرأ في كتاب قالوا لهُ مستهزئين به أفي هذا دواء الموت؟ فاذا قال لا قالوا ما هذه الكتب الا خرافات صدرت من عجائز خرفات وما يزيد في أجل العالم علمهُ ولا ينقص في عمر الجاهل جهلهُ وما الامر الا كما قال ابو غسان الطبيب

حكَمُ كأسِ المنون ان يتساوى في احتساها الغبيّ والالمعيُّ
ويحلُّ البليدُ تحتَ ثرى الارضِ كما حلّ تحتها اللوذعيُّ
أصبحا رمّةً تزايلَ عنها فصلها الجوهريُّ والعرضيُّ
وتلاشى كيانُها الحيواني وتوارى تقويمها المنطقيُّ

وهذا الكلام من الايجاز على غاية الاضمحلال والفساد

فليس تساوي الناس في الموت والفناء حجة في عدم البقآء والمراتب في الدار الاخرى والناس قد يتساوون في السفر الى المدينة ويتزينون اذا وصلوا الى المستقر بحسب المنزلة بما صحبهم من الذخائر والامتعة هذا بيان بحسب الاختصار وفيه كفاية ٠ ويعظمون البيطرة على الطب لانسهم بالبهائم وشبههم بها وينظرون بالمحبرة (١) ويسمونها خرزة الشوءم ومحرفة (٢) الحرفة واذا رأوا طبيباً مكباً على العلم قالوا مقرون بالحذق ضيق الرفق (٣) واذا تكلم ودقق في مسألة قالوا سوداويٌّ اعتقاداً ان العلم يخرج الى الجنون فان لم يفهموا ما يقول قالوا هذه زندقة فان نظرهُ فريقٌ منهم انشد الفريق الآخر

وماتنفعُ الآدابُ والعلمُ والحجى — وصاحبها بعد الكمالِ يموتُ

(١) الدواة
(٢) الة الكسب
(٣) اى الانتفاع يقال ارتفقت به اى انتفعت به

ولا يقولون في الاغذية حارة وباردة لكن هذا غذآء ميال يريدون مستحيلاً كالبطيخ وهذا بطبع الموت اي انه بارد يابس ويسمون الرطب ليناً ويقولون ان المشمش بطبع الحمى والبلوط قولنج وهذا كله قريب وانما المصيبة العظمى اعتقادهم في الكافور والثلج انهما حاران وفي الرازيانج(١) والحناء انهما باردان وان ماء الشعير بطبع الصفرآء كل هذا من عجز الاطباء وقلة خبرتهم بكتب القدماء فانقرضت الصناعة ووهى نظام سلكها واخلق جديدها وتفرق ايدي سبا عديدها فهانت في النفوس ودبرت (٢) عند الناس وخلت من الفضلاء فصار الآن يتعاطاها القوابل وقوام (٣) الهياكل ويعتادون (٤) في

(١) بقله وقيل هو الانيسون وقيل الشمر
(٢) ماتت
(٣) جمع قيم
(٤) اعتاد الشي اتاه اي صيره عادة لفسه يقول انهم اتخذوا عادة لانفسهم ما يصفه الاطباء للمرضى

صفات الاطباء فذهب رونقها وأخلقت بهجتها وصارت كالفضل الذي لا يحتاج اليهِ وبطل الطب البقراطي وظهر طب لم يأمر الله سبحانهُ على السنة اصفيآئهِ بشيءٍ منهُ. فبينما هم في الكلام اذ طرق الباب مريض فاذن لهُ في الدخول فلما حضر سلم وجلس واستأذن في وصف ما يجدهُ فاذن لهُ فقال ياسيدي اني اجد نشفاً في فمي ورياحاً في أحشآءي واعتقالاً في طبعي وبصاقاً وبلاغم في معدتي ورطوبات تسيل على مخدتي واذا شربت البارد ازداد لهبا واذا شربت الحار سكن في الحال اكثر ما اجد ومع هذا بينما تراني ضاحكاً حتى عدت باكياً . آمالي قصيرة وافراحي يسيرة هضمي قليل وغذآئي كثير حشاي يحترق وبولي ابيض يقق . واذا شكوت ما بي الى الاطبآء نسبني بعضهم الى الكذب ولم يزدني آخرون على تحريك الرأس والعجب . قال الشيخ هذا مما كنا فيهِ . قد صدقتَ في جميع ما ذكرتَ وهذا مرض ينفع فيه العلاج بالاشيآء

الحارة ولكل ما ذكرتَ اسبابٌ واضحة يحتاج شرحها الى زمان ممتد وتفريغ قلب وعقل جيد فعول على الحمية وعد اليَّ دفعة ثانية فودعنا وانصرف فاومأ الى تلميذه وقال غنِّ صوتاً فاندفع يغني

منّةٌ للكرى وطيفِ الخيالِ جددتْ بيننا عهودَ الوصالِ
كانَ قد ساعد الرقيبُ بها لو م لا فضولُ السوارِ والخلخالِ

فالتفت اليهِ مغضباً وقال اين نذهب بك ؟أهذا من اقتراحات الاطباءِ واصوات الحكماء ؟ أما علمت انهُ قبيح بالمغنى ان يغني في تموز

قفي بالله يامطرُ فكثرة ما يجي ضررُ

وقبيح ان يغني بالعشى

تصبح بوجه الراح والطالع السعدِ

وقبيح بانه يغني في العرس

احسن ما كان تفرقنا فخاننا الدهر وما خنّا

وقبيح ان يغني لشريف

لك عيدُ الصليبِ تلعبُ فيه ولنا المهرجان والنيروزُ

ثم قال غنِّ احد اصواتي التي اقترحتها في مبدإِ سكري فاندفع وغنى بشعر العباس بن الاحنف

زعموا لي انها باتت تُحَم ابتلى الله بهذا من زعمْ
اشتكت مما بهِ كانت كما يشتكى البدرُ اذا ماقيل تم
ايت بي شكواكِ ياسيدتي فلكِ الاجرُ وان طال السقم

فشربوا وملأُوا الاقداح فهزجه في شعره ايضاً

يا ايها المحمومُ نفسي فداكْ مالي من الدنيا سرورٌ سواكْ
قد كان بي سقمٌ وقد زادني سقمُك سقماً وبلاني بلاكْ
فليتني حُمّلتُ عنكَ الذي تلقى لكي يُجمعَ هــذا وذاكْ

فطرب ابو ايوب الكحال وقال اسمعوا يا اخوان الصفآء وبقية العلمآء فوحق منشىء الطبائع ومبدىء البدائع لو كتب هذا بالمباضع في المسامع وقع اجل المواقع فشرب القوم وطربوا وزاد الشيخ في حد الانتشآء فلما دبت فيه حُميا الكأْس وانتشرت منه في المفاصل والرأس

اخذ في هذيانهِ وبث اشجانه وقال ياخي قد تعبتُ في جمع العلم وكددتُ نفسي في قرآءة الكتب وما بلغتُ بصناعة الطب غرضي من الكسب وسبب ذلك ان مروءات الناس قد سقطت ونفوسهم قد خست وصغرت وقد مضى العمر وكبر السن وانا ماضٍ وما اخلف ولداً يحيي ذكري ولا حميماً يبكي على قبري وتمثل بقول الاول

تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم اجدْ سوى مجلسي في الطبِّ والعلم والكتب

ثم ارخى عينيهِ ساعة بالبكآء وانصرف القوم

القسم الثاني عشر

في خاتمة الكتاب وذكر سبب انقطاع الزيارة والاجتناب

وبقي ابو جابر تلميذهُ فالتفت الى غلامه وقال اسقني قدحاً وقال غنني بقول الشاعر

يموتُ راعي الضأنِ في جهلهِ ميتة جالينوسَ في طبّهِ
وربما زادَ على عمرهِ وزادَ في الامن على سربهِ

ثم مال على جنبه نائماً فنهضتُ على رجلي قائماً

فلما هممتُ بالانصراف قال لي الغلام أتمضي ياسيدي وتتركني وهذا المسكين الذي قد كدَّ يومهُ وغنى حتى بحَّ حلقهُ جائعين . فقلتُ وما سبب جوعكما وفي الدارطعام فقال متى انصرفتَ لم اتجاسر على سقيهِ ولم اقدر على التعرض بهِ وان اقمت احتججتُ بك ودخلتُ انا وهذا الفتى في غمارك (١) فصغت نفسي الى اطعامهما وسقيهما غيضاً (٢) من شحهِ ومكافأة على بخلهِ فاعاد الحمل وقدم الطبق فلم نبق ولم نذر . وعدلنا الى الفالوذج فاثنينا على بقيته وملنا نحو الشراب فشربنا فضلتهُ وغنى ذلك الفتى

نبئتُ أن النارَ بعدكَ أُضرِمَتْ واستبَّ بعدكَ يا كليبَ المجلسُ
وتحدَّثوا في أمرِ كلِّ عظيمةٍ لو كنتَ شاهدهم بها لم ينبسوا

وطاب الوقت واتصل الشرب . بينا فبينما نحن على

---

(١) يقال دخلت فى غمار الناس اى فى زحمتهم وكثرتهم واصله من الغمر وهو الستر والتخفية

(٢) مصدر غاض الماء اى نقص وقل ونضب

هذه الحال اذ رفع الشيخ رأْسهُ متيقظاً فلما رأى وقد تفرغ الجام من الحلوآء وابيضت عظام الشوآء قال ما هذا التبسط في منزلي والتحكم في مطعمي ومشربي. قلت تذكرتُ قولك قال وما هو قلت

أُضاحكَ ضيفي قبل إِنزال رحلهِ فيخصبُ عندي والمحلُّ جذيب

قال الاشرار يتبعون مساوىء الناس كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة من البدن. قلت ياسيدي ما تناولنا منه الا القليل وكنا قادرين على الكثير . قال صدق افلاطون في قوله « لا تصحبوا الاشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم » أَما تعلم ان لكل اصفهان يأْتي على الجمال ويفنى بالاميال قلت ياسيدي انت دعوتني الى منزلك وعرضت عليّ طعامك وشرابك فما زرتُ متقلاً ولا حضرتُ عندك متطفلاً قال قد فعلتَ ما هو اقبح من التطفيل واصعب من التثقيل لانك حرزتني (١) من نفسك

(١) اى جعلتني احترز

وزعمت انك لا تقدر على شرب الشراب واراك تكرع منهُ بالارطال والاقداح والذنب لي في الاغترار بك والانخداع لك . ثم استوفى على نفسه اليمين انه لا يضيف غريباً بقية عمره ولا يأْذن لاحد في دخول منزلهِ فنهضتُ من عنده وغبتُ عنه عدة ايام وعاودت دارهُ فاذا بهِ مراعياً للطريق من شباك فلما نظرني صاح ياغلام احفظ الباب والمرق فقد ورد الغرار الملق (١) واخاف ان يلج الدار ويتسلق . فلما رأْيتهُ بدأْتهُ بالسلام وغمرتهُ بالاعظام والاكرام فاعرض ولم يرد السلام فانشدت

كأَنْ لم يكنْ بين الحجونِ الى الصفا انيسٌ ولم يسمر بمكةَ سامرُ

فقال الشيخ

بَلى نحن كنا اهلها فأَبادنا صروفُ الليالي والطبيبُ المسافرُ

ثم قاطعني واغلق باب الشباك فكان آخر عهدي به

(٢) من املق اى افتقر والغرار صيغة مبالغه من غره غروراً وغرة خدعه واطمعه بالباطل

قد وفينا بما ضمنا بقدر ما جادت بهِ القريحة وساعدت عليه العبارة وجعلنا الهزل طريقاً الى الجدّ اذا كان الانسان متردداً بين الحس والعقل. وقد ذكرنا اسمآء غير دالة على اشخاص معروفين ليصل الفهم الى القاريء بهم على وجه المجاورة ووسعنا الكلام لان اللسان اذا وجد مسرحاً لم يقف الخاطر واذا أصاب سخآءً لم يكف على اننا لو اردنا فرش الكلام لتعرضنا لحدوث الملال والسآم. ونرجو ان يكون ما اتينا بهِ مدركاً لرضى من حث على نظم منثره وجمع منتشره. والله نسأل ان يخرجنا من هذا الفنآء المحشو بالعنآء بعد العنآء(١) الى حضرة القدس ومقر الانس مع مراد النفس في ملكوت السمآء حيث لا يتعذر مطلوب ولا يفقد محبوب انهُ سميع مجيب

تمت الرسالة بحمد الله ومنهِ وحسبنا
الله ونعم الوكيل

---

(١) العناء الذل من عنا يعنو والعناء النصب

المقدمة

ترى أيها القارئ اللبيب أنَّ هذا الكتاب وقد تمثَّل لك في صورةٍ منْ حسن الطبع يرتاح اليها النظر . وتجمل بتصحيح عبارته وتهذيب بعض الفاظهِ على طريقةٍ لايمجُّها الذوق ولا ينبو عنها البصر . حريٌّ بأن تحلَّهُ محلَّ القبول والاستحسان . وتفسحَ لهُ من بصيرتك النقَّادة مجال التروّي والامعان . وتدبّر بما تضمنهُ من الحكَم الناصعة . وتعمل بنصائحهِ النافعة . وتستفيد من آدابهِ الرائعة . واذا شئت ان تعفيني من تنميق الكلام وتطريزه . في مدحهِ وتقريظه . تحاشياً من ترديد النغم الواحد لثقلهِ على السمع . وتنكباً عن خطة التحدِّي لانها صارت نافرةً على الطبع . فلستُ أُعفيك من ان ترجع معي القهقرى تسعةً من القرون . وقد تقلَّص ظلُّ الدولة العربية عن بغداد دار العلوم والفنون . لنرى كيف يكتب المصنف بلغة ذلك العصر . روايةً كما نوَّر الزَّهر . موَّهَ بها الجدَّ بالنكات الهزلية . وضمَّنها من الحكم الفلسفية . والوصايا الصحية . والمسائل الطبية . مايستفيد به كلُّ انسانٍ . فكأَنها تنطق بكل لسان . او كأَنهُ من ابناءِ هذا الزمان . وقد ألتفَّ حواليهِ المتخرقون . وهو يحاول تقويم المنآد

واصلاح الشؤون

واذا كنت

لاترى,, الاوائلَ "شيئاً وترى للأواخر التقديما

فلا يسعكَ ان تنكر

ان هذاالقديمَ كان حديثاً وسيبقى هذا الحديثُ قديما

فربَّ قضيةٍ مسلمةٍ الآن . ستُنقَضُ في مستقبل الزمــان . لعدم تحققها بالبرهان . وثبوتها بالعيان . ولا مرآء في أنَّ العلم قد وشجت لهذا العهد أعراقهُ في تربة التحقيق . واخضّلت اوراقهُ بعد اذ سُقيَ بماء التمحيص والتدقيق . على ان فضل القدماء لا يُنكر والاغضاء عن بيان فضلهم لا يُشكر . فنحن انما بنينا على اساسهم . واهتدينا بنبراسهم . على ما سيتضح في هذه المقالة التي اقترحها عليَّ بعض الاصحاب . فلم اجد ندحةً عن الاجابة رغبة في تعميم الفائدة للطلاب

وان تكن مُحكمات الشُّكلِ تمنعُني ظهور جريٍ فلي فيهن تَصهالُ
لكن رايتُ قبيحاً ان يُجادَ لنا وانــا بقضاء الحقِّ بُخّالُ

الفصل الاول

﴿ في مبدإِ علم الطب ﴾

خُلِق الانسان محفوفاً بالاخطار والمهالك معرَّضاً للتأثر بالفواعل الطبيعية مما يُحدث في بنيتهِ تغيراً تخرج بهِ عن خطة النظام القائم بحفظها وتدبيرها وغاتها حريصاً على طلب النافع ودفع الضارّ مولعاً بالبقاء مجتهداً في صيانة نفسهِ من العوارض التي تطرأُ عليه محمولاً بالطبع على التوجع والتألم منقاداً بالضرورة الى تجربة ما ظنهُ نافعاً لهُ فكان في مبدإِ امرهِ طبيب نفسهِ ثمَّ لما كان اليفاً بالطبع مفطوراً على رقة العواطف والشفقة على المصابين والمتألمين صار بعد ذلك طبيب غيرهِ فمبدأُ الطب اذاً الميل الغريزيُّ في الانسان الى مزاولة الوسائط العلاجية واستعمالها بمقتضى الشفقة والمناصحة وغايتهُ „ شفاءُ الادواء احياناً وتخفيف الآلام غالباً وتعزية المصاب دائماً " [١]

فبناءً عليه يكون علم الطب موجوداً مع خلق الانسان لانهُ ضروريٌّ في صلاحهِ فهو من شؤون الفطرة السليمة بدليل كونه

(1) Introduction du dictionaire de médecine et de thérapeutique médicale et chirurgicale, par E. Bouchut et A. Després

غريزياً في الحيوان على ماثبت بالمشاهدات الكثيرة فترى السنانير اذا حصل لها وجعٌ في بطونها لحست الزيت من المصابيح وكذا تأكل العشب في الربيع وليس هو من اغذيتها فاذا اكلتهُ تقيَّأت والثعلب اذا ولد وخاف على اولادهِ من الذئب جعل حول وجارهِ من بصل العنصل فان الذئب اذا مشى على بصل العنصل اعتلَّ وربما مات قال الرازي ان طائراً كثير الغذاء بالسمك يأخذ من ماء البحر بمنقارهِ ويحقن بهِ نفسهُ اذا احتبس بطنهُ فيخرج منهُ الثفل ومنهُ تعلم الناس الحقنة [1] . ومن المقرر ان الانسان عوَّل في بدء امرهِ على التجربة لمداواة نفسهِ وعلاج ابناء جنسهِ وتوسع بذلك حتى صار مجموع النتائج المحصَّلة من هذا القبيل على توالي الايام وتعاقب العصور علماً واسع المجال بعيد المنال بما ضُمَّ اليه من المجرَّبات وما استُنبط فيهِ من طرق الاستقراء والاستدلال [2]

ولما كثر الناس وانتشروا على وجه البسيطة وتفرقوا قبائل وشعوباً دعت الضرورة الى تخصيص فئة من كل قوم للسيطرة والزعامة محافظةً على النظام وتقريراً لاصول السياسة فنشأت مبادئ

---

(١) مقدمه كتاب الجوهر النفيس فى شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازى

(٢) الطيب فى الطب والاطباء . للموءلف

الرئاسة [١] والانسان ميالٌ بالطبع الى الاستقلال لا ينقاد الى غيره الا مُكرَهاً مدفوعٌ بحكم الضرورة الى مغالبة الطوارئ الطبيعية ومنازعة امثاله ليتسنى له البقاء مفطوراً على حب السلطة بما يتهيأ له من الوسائط فلا بدع ان اعتصمت هذه الفئة بالقوة لتأييد رئاستها وتعلقت باسباب الاستبداد لتمكين سلطتها واتخذت من خوارق الطبيعة اسباباً تخلب عقول البسطاء للانقياد لها والتسليم لاحكامها وليس شيء اقرب في اختلاب العقول وتقرير الصلة بين الخالق والمخلوق من صناعة الشفاء وعليه قولهم الطبيب واسطة بين الله والمرضى [٢] فاختص الطبُّ بالكهَّان من قديم الزمان وكانوا يستنزلونهُ وحياً على زعمهم ويتخذونهُ ذريعةً لاثبات دعوى المعجزات ويقتبسون نوره من وراء الطبيعة. وكانت العامة يُعظمونهم لما تخيلوا من كراماتهم ومقدرتهم التي تفوق طور العقول فانقادوا اليهم صاغرين ثم زاد وهمهم فألهوهم بعد موتهم وعبدوهم واقاموا لهم الهياكل والانصاب يقربون فيها القرابين والذبائح ويحرقون البخور ومن خالف الجمهور في اعتقاده عدُّوهُ مجرماً او كافراً فنكلوا به تنكيلاً

---

(١) انظر مقدمه ابن خلدون

(٢) دعوة الاطباء صفحه ٣٢

وكانت الهياكل بمثابة بيوتٍ للمرضى يجتمعون اليها طلبا للشفآء وكان لسدَنتها السلطة على النفوس والاجساد لا يُعارضون في ما يعملون لانهم اتخذوا الوحي والالهام ذريعة لهم فكانوا يعالجون بالعقاقير على سبيل التجربة كما يتراءى لهم ويقيدون ما تعلموهُ وجربوهُ على جدران الهياكل ليستفيد بهِ الخلف من ذريتهم لا يبيحون سرَّهُ لسواهم ولا يستعملهُ غيرهم . وهذا ما سماهُ جالينوس بطب الهياكل

وانحصر الطب في اليونان بآل اسقيليبُس وهو عندهم إله الصحة والطب [1] نشأ القول بألوهيتهِ في تساليا مسقط رأسه على ما ادَّعوا ولهم بشأنهِ قصصٌ خرافية نعدُّها من اساطير الاولين . وكان لهُ في ارغوليد من إليريا هيكلٌ كبير اقيم بجانبه بناءٌ فسيحٌ للمرضى . وكذلك كان لهُ في اثينا هيكل عظيم في سفح الاكروبول الجنوبي حيث وجد في انقاضهِ ادراجٌ اثريةٌ كُتب فيها شكر المرضى على شفائهِ اياهم وصفات العلاج الذي استعمل لهم . واشتهرت ايضاً مدينة برغامس في آسيا الصغرى بعبادة اسقيليبس وكانوا يصورونهُ قابضاً بيدهِ على عصى التفَّت عليها حيتان والى جانبه ديكٌ فالحية رمزٌ على تجدد الشباب لانها تنسلخ في بعض فصول

[1] Esculape, Æsculapius, ΑΣΚΛΗΠΙΟΣ voy. la Grande Encyclopédie

السنة · والعصي او الصوجان رمز على السلطة · وقال سقراط ان المرضى الذين كانوا ينالون منهُ نعمة الشفآء كانوا يقدمون لهُ ديكاً فالديك الذي يرى الى جانب صورته يشير الى تقدمة الشكر على حصول البرء . قال ابن القُفّ [١] ان اسقيليبس سُمّي متألهًا لانهُ رُفع الى السمآء لشرف صناعته بعد ان نشرها في الارض واودعها في اهله ولم يخرجها منهم فكان اهلهُ من بعده يعاهدون بعضهم بعضاً ان لا يمكّنوا احداً خارجاً عنهم ان يقف على شيء من علم هذه الصناعة بل كانوا يعلّمونها لاولادهم وكانت المواضع التي يُعلَّم فيها الطب ثلاثة احدها المدينة المعروفة برودُس والثاني مدينة قوس والثالث المدينة المعروفة بقيدوس . وان الاطبآء الذين كانوا في هذه المدن الثلاث كانوا ايضاً من آل اسقيليبس · فلما مضى عدة قرون باد علم الطب من رودُس وانطفأ مصباحهُ من قيدوس ولم يبقَ من اهله في قوس الا نفر قليل فكادت هذه الصناعة يزول اسمها ويمحى رسمها لولا ان نبغ بقراط بن ارقليدس حفيد

(١) شرح فصول بقراط لابن القف : مجلد ضخم عليه خط المولف بالكلدانيه وفى اخره : بلغ قراءة على مصنفه فصح وكتبه العبد الفقير يعقوب النصرانى الملكى المذهب لنفسه ووافق الفراغ من نسخ هذا الكتاب عشيه الخميس ثالث عشر شهر رمضان سنه ٦٨٣ هـ

بقراط الاول من آل اسقيلبيس فعُني بجمع اصول الطب من الهياكل وتدوينها في الصحف وتعليمها للطلبة . ولكي يخرج نفسهُ من الاثم بنسخ عهد السلف كتب ميثاقًا على كل من يتلقى هذه الصناعة هذه صورتهُ ,, اُقسم بالله رب الحياة والموت وخالق الشفآء وواهب الصحة . واُقسم باسقيلبيس وباوليآء الله جميعاً لأتخذنَّ المعلمين لي صناعة الطب بمنزلة ابآئي ابرُّ بهم واُواسيهم واُصلهم عند الحاجة بمالي . واعتبر ابنآءهم بمثابة اخوةٍ لي واعلمهم هذه الصناعة ان احتاجوا بدون اجرةٍ ولا شرط . واشرك بين اولادي واولاد معلميَّ وتلامذتي في جميع حقوق الصناعة . واحرص على نفع المرضي جهدي بما اتوصل اليه من التدبير . وامتنع عن اجرآء كلما يضرُّ فلا اعطي دوآء يسقط الحمل ولا اشير بهِ . واحفظ نفسي علي الطهارة والزكاة . واصون ذاتي بالعفاف . ولا ابيح بالاسرار التي اُوتمن عليها ''

وذكر الشيرازي شارح ارجوزة الشيخ الرئيس ترجمة بقراط فقال ,, تفسير لفظة بقراط ماسك الارواح وانما كان اسمهُ الاول بقراطيس وكان سابع الاطبآء المشهورين من اليونان تعلم العلم من ابيهِ وجدّهِ وكانت صناعة الطب قبلهُ مخفيةً يدّخرها من يتعلمها وكانت في اهل بيت واحدٍ وهو اول من أحدث البيمارستان

وسماهُ اخشندوكين [١] ثم ان الذي جآء بعدهُ سماه بيمارستانًا لان لفظة البيمار المرضى وستان الموضع. قال جالينوس كان بقراط امامًا في علوم كثيرة منها علم النجوم والفلسفة والطبيعيات والالهيات ولم يكن لهُ رغبةٌ في الدنيا ولا في خدمة الملوك ولما سمع به ملك الفرس ازدشيرماه انفذ اليهِ مائة قنطار من الذهب على ان يتحوَّل اليه فامتنع وأبى ان يقبلها وقال

(١) وفى المقريزى اصدولين • « قال الجوهرى فى الصحاح » المارستان بيت المرضى معرب عن ابن السكيت • وذكر الاستاذ ابرهيم بن وصيف شاه فى كتاب اخبار مصر ان الملك مناقيوش بن اشمون احد ملوك القبط الاول بارض مصر اول من عمل البيمارستانات لعلاج المرضى . ومناقيوش هذا هو الذى بنى مدينة اخميم وبنى سنتريه . وقال زاهد العلماء ابو سعيد منصور بن عيسى اول من اخترع المارستان واوجده بقراط ايوقليدس وذلك انه عمل بالقرب من داره فى موضع من بستان كان له موضعا مفرداً للمرضى . وجعل فيه خدما يقومون بمداواتهم وسماه اصدولين اى مجمع المرضى واول من بنى المارستان فى الاسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك فى سنة ٨٨هـ وجعل فى المارستان الاطباء واجرى لهم الارزاق وامر بحبس المجذومين واجرى عليهم وعلى العميان الارزاق • ويطلق العامه الان اسم المارستان على دار المجانين ويخصون دار المرضى بالمستشفى وهو مولد وربما قالوا اسبتال وهو فى الاصل دار الضيافه • لاتينى

لست أبيع الفضيلة بالمال . وكان مقبلاً على الاشغال وكان قليل الاكل كثير الصوم يقول انا آكل لأعيش لا أعيش لآكل .
قال بعض القدماء كان لبقراط ثمانون مصنفاً في الطب ولما مات خلف ابنين وبنتاً . قيل كانت اعلم بالطب من اخويها ومن اقواله ,, كل مرض معروف السبب موجود الشفاء ''
ولد سنة ٤٦٠ ق م وتوفي على الارجح سنة ٣٧٧ ق م في لاريسا [1] وقد اقيم له نصب من حديد في اثينا كتب عليه ,, تذكار لبقراط المحسن الينا مخلصنا '' ونسب اليه الذين جاءوا بعده مصنفات لم تكن له وحكوا عنه قصصاً عجيبة ولا يبعد ان يكون النسّاخ في عهد الدولة اللاغوسية قد نسبوا اليه من الكتب ما لفقوه طمعاً بالربح لان البطالسة كانوا يبذلون الاموال الطائلة في شراء الكتب النفيسة واستنساخها وترجمتها فكثر المحتالون حينئذٍ وراجت بضاعتهم في تزوير الكتب ونسبتها الى جهابذة المتقدمين
وقد عُني ليتراي اخيرًا بجمع موَلفاته عن الاصل اليوناني وترجمها الى اللغة الفرنساوية في عشر مجلدات طبعت مع الاصل اليوناني في باريس سنة ١٨٣٩ ــ ٦١ [2]

(1) Hippocrate, Grande Encyclopédie
(2) Littré: Œuvres d'hyppocrate (Paris, 1839-61) 10 vol in-8 avec le texte grec et trad. francaise

الفصل الثاني

﴿ في الطب البقراطي ﴾

نبذة أُولى

جرى بقراط في وضعهِ قوانين الطب ومزاولة صناعة الشفاء على مبدإٍ الاختبار الشخصيّ والاستدلال العلمي فجمع بين التجربة والقياس وقرن العلم بالعمل . وكان سلفاؤُهُ يعوّلون في تجاربهم على الإِلهام ويهيمون في اودية الأَوهام . فمهّد لخلفائهِ سبيل التحقيق وبقي مذهبهُ شائعاً وتعليمهُ راسخاً الى امدٍ غير بعيدٍ لان الفلاسفة الذين جآءوا بعدهُ نسجوا على منوالهِ ولم يغيّروا من مبادئهِ شيئاً . على ان اكثرهم اعتمدوا على مصنفاتهِ فتوسعوا في تفهّم معانيها وعلّقوا عليها الشروح الطويلة وبعضهم تحرَّى طريقتهُ في وصف الامراض واسبابها واعراضها وعلاجها فرتبها على نسق يقرّبها من الفهم كما فعل اريسطو . ومنهم من تصدّى لتجربة العقاقير ومعرفة خواص الادوية فكشفوا كثيراً منها كما فعل دسقوريدس واندروماخس

وكانت اثينا لذلك العهد مهبط اسرار الحكمة ومجتمع الفلاسفة الذين اناروا بتعاليمهم اقطار العالم حتى بُنيت مدرسة الطب في الاسكندرية وأنشئت مكتبتها الشهيرة فتحول اليها كثيرٌ من فلاسفة

اليونان وبذل البطالسة جهدهم لترويج بضاعة العلم وجمع الكتب فازهر مصباح الحكمة فيها بعد ان خبا نوره في سائر مدن العالم·

وقد امتازت مدرسة الطب في الاسكندرية بانها اول مدرسة عني فيها بتشريح الجثث البشرية واجريت فيها التجارب العلمية على الحيوانات الحية لمعرفة منافع الاعضاء· ومن اساتذتها هيروفيلوس الخلقيدوني [1] تلميذ بركساغوراس من آل اسقليبيس وكان هذا من اطباء مدينة قوس جاء الاسكندرية في آخر حكم بطليموس فيلادلفوس واجتهد بمزاولة التشريح في مدرستها وكان يجل بقراط كثيرا ولكنه لم يقر له ببلوغ غاية العلم كما كانوا يزعمون ولم يسلم له بصحة ما ذكر عن اسباب الامراض وحقيقتها· وقد شهد جالينوس انه لم يكن له في التشريح كفوءًا احد. فهو على الحقيقة مؤسس هذا العلم ولا يزال ذكره مخلدًا ما الف فيه كتاب

وكان ايرازستراتوس معاصرًا لهيروفيلوس وزميلاً له وهو من تلامذة مدرسة قيدوس الا انه اتخذ خطة مخالفة لمعاصريه وسابقيه فتحرى نقض آرائهم زاعمًا ان الشرايين لا تحمل الارواح وان الدم الذي ينزف عند قطع احدها انما يتطرق من الاوردة

(1) A. Laboulbène: La Revue scientifique tome XXX de la collection – 1882
Grande Encyclopédie: Ecole de médécine d'Alexandrie

ولم يعتدَّ كثيرًا باسباب الامراض العامة ولكنهُ علَّق على الاعراض الاهمية الكبرى وزعم ان منشأ العلل خَلَلٌ في الغذآء فكان يُعوّل في العلاج على المسهلات

وممن نشأ في مدرسة الاسكندرية في ذلك الزمن فيلينوس وسرابيون (١) وكلاهما ذهبا الى انَّ العمدة في صناعة الطب انما هي التجربة وبَنَيا طريقتهما على ثلاث قواعد الاولى ان الفصاحة لا تجعل الانسان حاذقًا في فنّهِ والعامل بارعًا في صناعتهِ بل العمل والممارسة والثانية اذا عرفتَ الدوآء فلا تهتمَّ بمعرفة سبب الدآء . والثالثة لا يُشفَى العليل بتنميق الكلام ولكن بالعلاج . وهذه القاعدة كانت كثيرة الاعتبار عند الاسكندرانيين . ونشأ على اثر ذلك مذاهب أُخر كثيرة اشارَ اليها جالينوس في مصنفاتهِ وذكر اصحابها وردَّ عليهم وفند مذاهبهم

اما مكتبة الاسكندرية فقد صرف البطالسة الاموال الطائلة بانشآئها وجمعوا فيها الكتب التي استنسخوها باجور باهظة من جميع الجهات فكانت تشتمل على مئات الالوف من ادراج

---

(1) Philinus, de Cos; Sérapion, d'Alexandrie.

البَرديّ المصرية والرقوق البرغامية [١] والكتب القيّمة في جميع العلوم واللغات . قيل انها كانت تشتمل على سبعماية الف مجلدٍ . واذا اعتبرتَ ان الطباعة لم تكن معروفةً حينئذٍ وان العلوم لم تكن منتشرة كما هي الآن وان طريقة نسخ الكتب لم تكن سهلة وقليلة الكلفة لم تجد مخرجاً للتعليل عن امكان جمع هذه الكتب الا بان المجلَّد الواحد انما كان مؤلفاً من بضعة صفائح كما زعم بعضهم [٢] فقدَّر أنها لا تزيد على خمسين الف مجلدٍ بالنسبة الى الكتب المتداولة بين أيدينا . وقد حُرِق قسمٌ من هذه المكتبة سنة ٤٧ ق.م . اذ كان يوليوس قيصر يحاصر المدينة . قيل ان القسم الذي احترق حينئذٍ كان فيهِ اربعمائة الف مجلدٍ . فعُوِض عن هذا القسم بمكتبة سرابيون ومكتبة برغاموس وكانت تشتمل على مائتي الف مجلدٍ وهبها مرقس انطونيوس الروماني لكليوبترا ملكة مصر . وزعم ابو الفرج الطبيب المؤرخ ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ارسل

(١) البردى نبات له ساق هشة كان اهل مصر فى القديم يعملون منه القراطيس Papyrus . قيل ان ملوك مصر منعوا اخراج البردى من بلادهم فاستنبط اهل برغامس الرق يتخذونه من جلود المعزى وغيرها للكتابة بعد صقلها ولذلك سمى بالرق البرغامى (mambrana pergamena)

(2) A. Laboulbène; Revue scientifique 1883. tome: XXXII de la collection P. 648
Grande Encyclopédie; Bibliothèque

الى عمر بن الخطاب يخبرهُ بالفتح ويستشيرهُ بأمر المكتبة فكتب اليهِ " ان كانت هذه الكتب مخالفةً لكتاب الله فلاحاجة لنا بها وان كانت موافقةً لهُ ففي كتاب الله غنىً عنها " فامر بحرقها وبقوا ستة اشهر يوقدون بهـا الافران · وسوآء كانت هذه الرواية صحيحة او غير صحيحة فقد سبق بطاركة الاسكندرية الى تعطيل الموزايوم الشهير ونهب المكتبة مرارًا منعـًا للوثنيين واليهود من تعليم فلسفتهم · وقال كلوت بك [١] ما ملخصهُ : ان الكتب التي حُرقت بامر ابن العاص كان اكثرها من كتب الفلاسفة الجدلية والدينية اما مكتبة ارسطو ومصنفات بقراط وجالينوس وافلاطون فقد سلمت وبقيت وهي التي عُني الخلفآء بترجمتها الى العربية

وممن نبغوا في مدرسة الاسكندرية الفيلسوف الشهير كلوديوس جالينوس جآء اليها في مقتبل عمرهِ وقد أدبهُ الدرس وحنكتهُ التجارب وبقي اربع سنين يشتغل في التشريح ويتخرج في علم الطب حتى بلغ غايتهُ منهما . وُلد في مدينة برغامس (من ميسيا في آسيا الصغرى) سنة ١٢٩ م على الاصح [٢] وكان ابوه نيقور من اشراف هذهِ المدينة

(1) Aperçu général sur l'Egypte Par A.-B. Clot-Bey; tome II. p. 331

(2) La Revue scientifique ;1882. Travau de Darmberg sur Galien

(٣) جاء فى موسوعات العلوم الفرنسوية انه ولد سنة ١٣١م

واغنيائها وحكمائها فعني بتهذيبهِ وتعليمهِ حتى بلغ عمره السنة الخامسة عشرة ثم سلمهُ الى الفلاسفة الافلاطونيين ليعلموه الفلسفة ولما صار عمره ١٧ سنة رأى في الحلم ان يعلمهُ الطب. ومات ابوه وعمره ١٨ سنة. ولما بلغ السنة العشرين جاء الى ازميرو والف فيها ثلاث رسائل ثم جاء الى الاسكندرية وبقي فيها اربع سنين كما تقدم ثم آب الى موطنهِ يشتغل بالتطبيب حتى بلغ من العمر ٣٣ سنة فجاء الى رومة في بداية حكم مرقس اوريليوس قيصر وكان يلقي على العموم الدروس الطبية والفلسفية الى ان تفشى الطاعون سنة ١٦١ فارتحل عنها وقد عيب عليهِ ذلك . ثم طلبهُ الامبراطور صديقهُ الى رومة وأمرهُ ان يذهب مع الجيش في بعض حروبهِ فأبى زاعماً ان اسقيليبس اوحى اليهِ في الحلم ان لا يترك رومة فرغب القيصر اليه بتعليم اولادهِ وكان يشتغل بالتأليف . وكثرت المشاحات بينهُ وبين اطباء رومة فغالبهم وغلبهم ولم يسلم من نقدهِ احد الاَّ انهُ كان يجلُّ بقراط ويحترمهُ ويثني على . هيروفيلوس لبراعتهِ بالتشريح . توفي وعمرهُ سبعون سنةً في مسقط رأسهِ برغامس

وكان الاطباء في زمن جالينوس مختلفين في الآراء والمذاهب. ففريقٌ كان يعوِّل على التجارب دون القياس . وفريقٌ كان

ينكر التجارب فلا يعرف للطب الا مزية العلم . وزعم قومٌ ان المرض انما يحدث في المادة المؤلف منها بدن الانسان وليس للطبيعة دخلٌ في اصلاح الخلل الحادث فيجب ان يقاوَم بالعلاج الموافق لان التوقف مضرٌّ . وقال آخرون ان المرض ليس الا الخلل الحادث في الاخلاط او احدها تخرج به عن حد الاعتدال. والطبيعة انما تقتضي الموازنة فلذلك يقوم اصلاح الخلل بمساعدة الطبيعة والعبرة بالتوقف[1] . ومنهم قوم اعتمدوا على السفسطة والترَّهات فسمي بعضهم بالمخرقين وآخرين بمنمقي العبارات والفشَّارين والمقلّدين . قال الشيرازي لما ظهر جالينوس كانت صناعة الطب قد اندرست ومُحيت محاسنها وخُفي اكثرها فاحياها بعد موتها واظهرها بعد خفائها وحررها بعد تبديلها . صنف في اكثر فروع الطب كتباً كثيرة وشرح مصنفات بقراط في ١٥ كتاباً وحكى ترجمة حياته في مقدمة كتاب عملهُ لقراءة كتبهِ . واكثر مصنفاته تُرجمت الى العربية في القرن التاسع . ومنها ما فقد اصلهُ اليوناني وبقيت

(١) يراد بالتوقف expectation الوقت الذى يراقب فيه الطبيب فعل الطبيعة بدون مزاولة العلاج في اول الامر ليتبين هل الطبيعه جاريه على خطه السلامه او مائلة الى حالة الخطر فيتدبر بما تقتضيه الاحوال

ترجمتهُ العربية ثم تُرجمت الى اللغات الاوروبية وطُبعت مراراً

قال ابو العلاَء المعري

سُقياً ورعياً لجالينوسَ من رجلٍ ورهطِ بقراطَ غاضوا بعد او زادوا
فكلما أصَّلوهُ غير مُنتقضٍ بهِ استغاثَ اولوا سُقمٍ وعُوَّادُ
كُتبٌ لطافٌ عليهم خفَّ محملُها لكنَّها في شفاَءِ الداَءِ أطوادُ

واشتدت في مدينة الاسكندرية المشاحات على العقائد الدينية بعد تملك الرومانيين وانتشار الديانة المسيحية وتباينت المنازع السياسية وكثرت الفتن بين أهليها لتبايُن المنازع واختلاف العقائد فاضطرَّ العلماَء الى مهاجرتها فخبا نور العلم فيها ودُرست الصناعة الطبية واخنى الدهر على مكاتبها ومتاحفها فتفرقت ايدي سبا ٠ وكان الرومانيون متشاغلين بالسياسة والحروب فلم يعمر للعلم في ربوعهم منتدى ولم يذكر التاريخ عن اطبائهم الا افراداً اشهرهم بولس الايجيني من جزيرة ايجينا ويسمى بالقوابليّ لانهُ كان متضلعاً بعلم الولادة وامراض النساَء فكانت القوابل يستشرنهُ ٠ عاش في آخر القرن الرابع بعد المسيح ٠ وترجم حنين بن اسحق بعض مؤلفاتهِ الى اللغة العربية ٠ ونبغ في ذلك القرن القس هرون الاسكندري وهو اول طبيب وصف الجدري والف باليونانية مجموعةً تشتمل على ثلاثين كتاباً في الطب ترجمها الى اللغة

السريانية ماسرجيس اوماسرويه الاسرائيلي من بصرى بالاشتراك مع عالم آخر من الاسكندرية اسمه غوسيوس اوجاسيوس واخذ عنها الرازيُّ وعليٌّ بن عباس وزعما ان اكثرها منقول عن كتب فلاسفة اليونان ولا سيما جالينوس . وهذه المجموعة اول الكتب التي حصل عليها العرب في علم الطب

ولا يسعنا ان ننتقل للكلام على اطباء العرب قبل ان نذكر شيئاً من ترجمة شيخ فلاسفة اليونان وامام الفلاسفة اجمالاً واعني بهِ ارسطو [1] . كان اوحد زمانهِ في الطب والفلسفة والطبيعيات وجميع العلوم وهو المشار اليه في كتبهم بالفيلسوف الاكبر والفيلسوف الاول اخذ عنهُ العرب الحكمة وترجموا مصنفاته واشتغل كثير منهم بشرحها والتوسع في معانيها . وكان ابوهُ نيكوماخس Nicomaque طبيب ملك مكدونية امنتاس Amyntas الثاني ابي فيليبوس ابي الاسكندر الكبير وجدهُ كان طبيباً ايضاً من آل اسقيليبس فلا غرابة اذاً ان يكون الاسكندر العظيم تلميذاً لهذا الفيلسوف العظيم . ولد سنة ٣٨٤ ق . م . وتوفي سنة ٣٢٣ ق . م . ودخل مدرسة افلاطون في اثينا اذ كان عمرهُ ١٨ سنة وبقي ملازماً لهُ عشرين سنة حتى توفي استاذهُ ٣٤٧ ق . م . فترك اثينا ثم عاد اليها يدرس الخطابة وسنة ٣٤٢

(1) Aristote; Grande Encyclopédie

دعاهُ الملك فيلبوس المقدوني لتهذيب ابنهِ الاسكندر وكان عمرهُ حينئذٍ ١٤ سنة فلم يفارقهُ حتى شرع بالفتوحات في آسيا سنة ٣٣٤ ق . م . ثم اشتغل بالتدريس والتصنيف قال الشيرازي انهُ صنف ماية وثمانية عشر كتاباً وهو اول من تكلم في صناعة البرهان وجعلها آلة العلوم النظرية * وذكر الشيرازي من اطباءِ اليونان آخرين منهم روفس قال انهُ كان بعد بقراط بنحو مايتي سنة وكان من اجلّ علماءِ اليونان ذكرهُ جالينوس في عدة من كتبهِ واثنى عليهِ وعلى زهدهِ وعلى علمهِ صنف كتباً كثيرة وأفرد امراضاً كثيرة كلاً بمصنف ومن كلامه ,, امتحن المرءَ في وقت غضبهِ لا في وقت رضاهُ ". وقولهُ " خير الاشياءِ اجدُّها الا المودات " . ومنهم اريباسس قال انهُ كان طبيب ملوك زمانهِ انتهى اليهِ علم الطب بعد جالينوس وكان ماهراً في احوال النساءِ وكان على دين النصرانية واكثر تصنيفه الكنانيش . ومسيح بن الحكم كان طبيباً نصرانياً قيل انهُ ممن أخذ عنهُ الحارث بن كلدة وكان حسن العلاج والتصوير وكثيراً ما ينقل عنهُ الرازي في الحاوي ومن كلامه " انفع الاشياءِ موت الاشرار " وقال " سلوا القلوب عن المودات فانها شهود لا تقبل الرشى " وقيل لهُ ما اصعب شيءٍ على الانسان قال " معرفة نفسه وكتم سرهِ "

الفصل الثالث

في اطباء العرب

نبذة اولى

في منشإِ الطب عند العرب

كانت العرب قبائل متفرقةً منتشرةً في شبه الجزيرة العربية تعتمد في معاشها على الانعام فتضرب في اكناف البادية طلباً لمواقع الغيث وانتجاعاً للكلإِ . وكانت كلُّ قبيلةٍ كثر عديدها او قلَّ مستقلةً بأَمرها يجري افرادهـا على الفطرة السليمة في معاملة بعضهم البعض وينقادون لمشائخهم كما ينقاد الابناءُ للاباءِ . وكان دأبهم الغزو يتفاخرون به ويثأَرون بعضهم بعضاً فلم تنفكَّ العداوة بينهم حتى جاءَ الاسلام فجمع شتيتهم وألف بين قلوبهم فصاروا أُمةً اندفعت كالسيل المنهمر على مدن سوريا فاجتاحتها وتملكتها وتقدمت الى بلاد فارس من جهة اسيا والى مصر من جهة افريقيا ثم دخلت أُوروبا وتملكت اسبانيا ولم تصدَّها جبال البرانس[1] عن التقدم حتى

(1) Pyrénées هكذا كتبها المورخون من العرب لا كما يكتبها المترجمون الآن راجع نفح الطيب

وقف في طريقها كارل مارتل [١] في سهل بواتياي [٢] من فرنسا كما وقف سور الصين في سبيلها من جهة آسيا وقد استولت في الزمن القصير على ممالك القياصرة والاكاسرة ودخلت في حوزتها جميع المدن القديمة والامصار العظيمة الواقعة في اطراف المعمور من شواطيء بحر الظلمات [٣] الى شواطيء الاوقيانوس الهندي ومن بحر الروم الى مجاهل افريقيا . وكلُّ مملكةٍ افتتحتها رسخ قدمها فيها ودان اهلوها لها واعتنقوا دينها الاَّ الذين استأمنوا ودفعوا الجزية عن يدٍ فانتشرت اللغة العربية الى اطراف المعمور وغلبت سائر اللغات في مواطنها الاصلية فجرت ذيل العفآء على السريانية والقبطية واليونانية والعبرانية والفارسية وغيرها [٤] . وكان النصارى في تلك الايام دائبين على المشاحات في العقائد الدينية متشاغلين بالمماحكات في المنازع السياسية متهالكين في تقويض بنيان ممالكهم بالدسائس الداخلية والفتن الاهلية وقد اتخذ ملوك الروم قاعدة سياستهم „ فرّقْ فتملكْ " فساد الظلم ووقع الحيف واستبدَّ القويُّ بالضعيف وتشتتَ الجمع واقتسموا فرقًا تمكنت منها اسباب العداوة

(1) Charles Martel (2) Poitier
(3) Atlantique (4) V. l'histoire générale des Arabes, par Sédillot

وكلُّ فرقةٍ قويت انتقمت من الاخرى ونكلت بها تنكيلاً ولذلك اضطرَّ كلٌّ من جرى في عروقه دم الشرف والحرية الى ان يغادر موطنهُ ويهاجر الى حيث يرى لهُ مأمناً ومرتفقاً فكان العلماء والحكماء اولَ من اتخذ هذا السبيل وهم حياة الامــة فقصدوا بلاد الأكاسرة وغيرها من الاطراف الشاسعة هرباً من ظلم مضطهديهم وهرب كثير من علماء مدينة الاسكندرية الى اللاذقية وغيرها من مدن سوريا [1]

وكان النساطرة ممن ذاقو البلاء من الروم اذىً وشدَّةً فلجأوا الى ظلّ الأكاسرة في العجم حيث اسسوا في مدينة الرهــا مدرسةً ثم أنشئوا في مدينة جنديسابور مدرسة ومارستاناً واشتغل اساتذتها بترجمة كتب اليونان الى السريانية فتمهد للعرب بذلك سبيل طلب العلم

ولم تحفل الدولة الاموية في الشرق بعلم الطب والحكمة لتشاغلها بالفتوحات وتوطيد قواعد الملك . واول اطباء العرب الحارث بن كلدة اخذ الطب عن اساتذة مدرسة جنديسابور وطبّ بحضرة النبي وتوفي في بداية خلافة عثمان . وذكر الشيرازيُّ الاحنف بن قيس بن معاوية بن حصن السعدي التميمي البصري

1 Laboulbène; la médécine chez les Arabes; Sédillot. ; histoire générale des Arabes

توفي سنة تسع وستين من الهجرة · وذكر بعضهم عبد الملك بن ابهر الكناني وكان طبيباً عربياً نصرانياً من حكمآء مدرسة الاسكندرية اسلم في ايام عبد العزيز بن مروان حاكم مصر سنة ٧٠ من الهجرة (٦٨٩ م) ويوحنا أو يحيي المعروف عند السريان بالنحوي (غراماطيقوس) كان يعقوبيّاً من حكمآء الاسكندرية . وفد على عمرو بن العاص وقد عرف مكانهُ من العلم فاكرمهُ وقرَّبهُ . وكأَنَّ نجد الدولة العربية في احيآء موات العلم ونشر صناعة الطب بقي مرتهناً الى ان تبوَّأ بنوا العباس عرش الخلافة وجعلوا بغداد عاصمة المملكة الاسلامية · أو كأَنَّ الدولة العباسية آلت لتنهضنَّ بهذه الامة الى ذروة المجد فلم تجد مرقاةً لها افضل من العلم . فمنذ اختطَّ الخليفة المنصور مدينة بغداد سنة ٧٦٢ م ترك جرجس بن جبريل من ابنآء بختيشوع مدرسة جنديسابور واقام في بغداد وكان طبيب الخليفة وتوفي في ايامهِ وكان لهُ خبرة بتصوير العلل والعلاج فقط وهو الذي مهد الطريق لذويهِ بالحظوى لدى الخلفآء ورجال الدولة

وبنى هرون الرشيد المدارس وبيوت المرضى والصيدليات واباح الانتفاع بها للعموم . وكان طبيبهُ جبريل بن عبدالله بن بختشوع وكان مكرماً لديه حظياً عندهُ وفي ايامه تُرجمت كتب الحكمة

والطب من السريانية واليونانية والهندية الى العربية . وعهد اليهِ الخليفة بفحص الاطباء في مدينة بغداد ومنع من لم يكن كفواً لمزاولة هذه الصناعة . صنف الكناش الصغير للصاحب بن عباد فاجازهُ بالف دينار . وانشأ المأمون ندوةً علمية جمع اليها العلماء من كل صوبٍ وحدَب وبذل من الاموال ما لا يتقدَّر لمشترى الكتب وترجمتها الى اللغة العربية فكانت بغداد حينئذٍ عروس الدنيا ودار العلوم وعرصة الادب . قيل ان العلماء والمدرسين فيها واعضاء ندوتها العلمية بلغوا لذلك العهد ستة آلاف عدًّا . فتأمل

ومن مشاهير النساطرة الذين كانت لهم يدٌ بالترجمة الى العربية ابناء ماسويه منهم يوحنا صاحب النظم الحاذق والعلاج الخارق والبراعة التامة برع في عدة علوم وكان من بطانة هرون الرشيد . اشتغل بتدريس علم الطب في مدرسة بغداد والف كتباً كثيرة وتوفي سنة ٢٤٣ هـ . وكان تلميذهُ حنين بن اسحق المولود في الحيرة من مشاهير المترجمين في القرن التاسع ثم صار طبيب المتوكل ومما يؤثر عنهُ ان المتوكل اراد امتحانهُ ليعرف مكانهُ من صدق الخدمة فخلع عليهِ واقطعهُ بما يساوي خمسين الف درهم ثم طلب منهُ ان يصف لهُ دواء يقتل به عدوًّا لهُ لا

يحبُّ ذكر اسمهِ فاجابهُ حنين يعفوني امير المؤمنين فانني لم اتعلم غير الادوية النافعة ولم يخطر ببالي انهُ يطلب مني خلافها ولما لم يظفر منهُ بطائل اخافهُ وتهددهُ ثم ارسلهُ الى السجن في بعض القلاع وتركهُ مدةً وبعد ذلك احضرهُ واعاد عليهِ الطلب فاصرَّ على امتناعه . فأمر الخليفة باحضار سيف ونطع وقال نقتلك ان لم تفعل . فقال حنين ان لي رباً يأخذ بحقي غدًا في الموقف الرهيب . فتبسم المتوكل وقال لهُ طب نفساً فانا انما اردنا امتحانك والثقة اليك . فقبّل حنين الارض وشكر . وبعد ان هدأ روعهُ سألهُ الخليفة ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيت من صدق الامر منا في الحالين . فقال شيئان „ الدين والصناعة " اما الدين فانهُ يأمرنا باصطناع المعروف حتى الى اعدآئنا واما الصناعة فانها موضوعة لنفع ابنآء الجنس ومقصورة على معالجتهم ومع هذا فقد جُعل في رقاب الاطبآء عهد موكد بايمان مغلظة ألاّ يعطوا احدًا دوآء قتالاً او مضرًّا فقال الخليفة انهما شرعان جليلان وانعم عليه فحمل انعامهُ وخرج وهو احسن الناس حالاً وانعمهم بالاً [١] . واشتغل حنين بالترجمة فترجم كتب بقراط وجالينوس

(١) خطاب للموءلف القاه فى ختام سنه ١٨٨٩ للمدرسة الكلية السوريه ـ الوافى للمرحوم امين الشميل ـ

Sédillot; histoire générale des arabes; tome II, page 75

وافلاطون وبطليموس وبولس الايجيني وكان ابناهُ اسحق وداود مترجين ايضاً . وذكر الشيرازي اسحق ولم يذكر حنيناً . قال نقلاً عن ابن خلكان" اسحق بن حنين العبادي الاسرائيلي الحميري اشتغل على ابن ماسويه وكان متقناً للطب والعربية واليونانية عرَّب كثيرًا من كتبها وكان كثير الاعتناء بكتب ارسطو وجالينوس توفي سنة ٢٦٨ هـ" . وامتاز ابن اخته حُبيش بضبط الترجمة والنقل والف كتاباً في الطب . وكثر مترجموا الكتب عند الخلفاء العباسيين وممن اشتهر منهم حجاج بن مطر ترجم المجسطي تأليف بطليموس في علم التنجيم ومقالات اقليدس في الرياضيات وبعض مصنفات ارسطو . وكثر الاطباء من الهنود والفرس واليهود والنصارى عند الخلفاء منهم صالح بن بهلة وعبدوس بن زيد وموسى بن اسرائيل الكوفي وابناء الطيفوري وزين الطبري اليهودي وقسطا بن لوقا من بعلبك وابو زكريا يحيي بن ماسويه وابو زيد حنين بن اسحق بن سليمان بن ايوب العبادي الشهير بالترجمة ولد سنة ١٩٢ هـ (سنة ٨٠٩ م) وثابت بن قرة الصابئ من حران اشتغل مع قسطا بن لوقا بترجمة كتب جالينوس وغيرها من كتب الطب والرياضيات والتنجيم وفيه يقول السريُّ

الرفّاء احد شعراء سيف الدولة بن حمدان [١]

هل للعليل سوى ابن قرّة شافِ بعد الالهِ وهل لهُ من كافِ
احيي لنا رسم الفلاسفة الذي اودى واوضح رسم طبٍّ عافِ
فكأنهُ عيسى بنُ مريم ناطقاً يهبُ الحياةَ بايسر الالطافِ
مثلتْ لهُ قارورتي فرأى بها ما اكتنَّ بين جوانحي وشغافي
يبدو لهُ الداءُ الخفيُّ كما بدا للعين رَضراضُ الغديرِ الصافي

ومنهم يوحنا بن سرابيون المعروف بيوحنا الدمشقي بالنسبة الى دمشق وهو مؤلف الكناش كتبهُ بالسريانية وترجم الى العربية ثم ترجم الى اللاتينية ولهُ تصانيف كثيرة اكثر الرازي عنهُ النقل . ومن مشاهيرهم في ذلك العصر ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي كان من بطانة المأمون ثم اتصل بالمعتصم وهو من ابناء الملوك وكان فيلسوفاً بارعاً في علوم اليونان والعجم والهند . الف كتباً كثيرة ونقل عن فلاسفة اليونان ولاسيما عن ارسطو [٢]

(١) يتيمه الدهر للثعالبي

(٢) ذكر صاحب عيون الانباء فى طبقات الاطباء وغيره اسماء كثيرين من نقلة العلوم والمترجمين الى اللغه العربيه . من يونان ويعاقبه وسريان و نساطرة ويهود وهنود فاقتصرنا على ذكر بعضهم ممن اشار اليهم علماء الافرنج اثباتا لما نحن فى صدده

فمما تقدم يتضح ان العلوم ولا سيما علم الطب لاح نورها في مدرسة جنديسابور من بلاد العجم ثم اشرق في بغداد بعد ان خبا في بلاد اليونان وانطفأ في مدينة الاسكندرية. وان الصلة بين اللغة اليونانية واللغة العربية كانت اللغة السريانية في بدء الامر . وان نقلة علوم الحكمة والطب كانوا من النساطرة واليعاقبة غالبًا واليهود والصابئة احيانًا . وان الكتب التي وضعت باللغة العربية حتى القرن التاسع لم تكن الا مترجمةً عن اليونانية غالباً . وان الفضل في احياء هذه هذه العلوم ونشرها يرجع للخلفاء العباسيين ولا سيما الرشيد والمأمون اللذين ظهرت عنايتهما بترجمة الكتب وجمع العلماء وانشاء دور العلم وبيوت المرضى في بغداد كما فعل البطالسة في الاسكندرية من قبل

نبذة ثانية

في حكماء العرب في الشرق

وبعد القرن التاسع ظهرت فلاسفة العرب الذين أَلفوا في الطب الكتب النفيسة وهي الكتب التي اتخذت دستوراً جرى عليه العلماء عموماً في مزاولة صناعة الطب مدة اثني عشر قرناً . ولا يسعنا المقام ان نذكرهم كلهم فنجتزيء بذكر تراجم الذين امتازوا

بينهم ولا سيما الذين اخذ عنهم الاوربيون وترجموا مصنفاتهم الى لغاتهم . فمنهم الامام ابوبكر محمد بن زكريا الرازي الملقب بجالينوس العصر [1] وُلدَ ونشأ في الريّ وبرع في علم الادب والفنون منذ كان صغيراً وكان كثير الولع بالموسيقى والنظم ثم جاء بغداد وزار بيمارستانها فرغب في الفلسفة والطب فبرع فيهما حتى بلغ الغاية وصار اشهر اساتذة مدرسة بغداد . وكان زكياً حافظاً باراً بالناس رؤوفاً بالمرضى كثير العناية بالفقراء صنف كتباً كثيرة منها كتاب الاقطاب في ثلاثين مجلداً والحاوي في خمسة عشر مجلداً وقد حكى فيهِ عن عجائب في معالجتهِ تدل على براعتهِ وتُرجم هذا المصنف الى اللغات الاوروبية وطُبع على اثر اختراع آلة الطباعة في مدينة البندقية في ١٧ مجلداً . قال كوفياي " ان هذا الكتاب يشتمل على الدروس التي املاها الرازي على تلامذتهِ في مدرسة بغداد وقد اضاف اليها بعضهم فصولاً بعد موتهِ " وكان رئيس اطباء بيمارستان بغداد والري وجنديسابور معاً . وألف في الكيمياء اثني عشر كتاباً وألف كتباً كثيرة في التشريح ومنافع الاعضاء وغير ذلك . ومن مصنفاتهِ المنصوري في عشرة مجلدات ذكر في آخرهِ الصفات التي

---

(1) V. la Revue scientifique, tome XXXII de la collection P. 647

يجب على الطبيب ان يكون حاصلاً عليها والقوانين التي يجب عليه السلوك بموجبها وندّد بالمخرقين بصناعة الطب كما فعل بقراط وجاليغوس من قبلُ . وهذا الكتاب بلغ من الشهرة في اوروبا في القرون الوسطى ما لم يبلغهُ كتاب آخر حتى ان الملك لويس الحادي عشر امر بان لا يعتمد الا عليهِ في تدريس علم الطب في مدرسة باريس [١] وسماهُ بالمنصوري لانهُ جعلهُ تقدمةً الى منصور بن نوح الساماني امير خراسان حفيد الخليفة المعتصم . ومن بديع مصنفاتهِ رسالة في وصف الجدري والحصبة عُني بطبعها في بيروت الاستاذ الطبيب الذكر العلامة كرنيليوس فانديك . قيل ان الرازي اصيب في شيخوخته بالماء الازرق فجاءهُ جراح ليقدح عينهُ فسألهُ كم هي طبقات العين ورطوباتها فلم يُحرْ جواباً فقال خيرٌ لي ان ابقى اعمى من ان يقدح عيني جاهل . وصرفهُ . توفي سنة ٩٣٢ م (٣١١ هـ)

ومن [٢] كلامهِ "الحكيم برأيهِ متلفٌ" ومنهُ "يجب على

---

(١) وقيل ان الملك لويس الحادى عشر طلب الكتاب المذكور من مدرسة باريس الكلية بضمانة باهظة لياخذ عنه نسخة

Edouard Forestiè; LaRevue scientifique, tome XXXIV de la collection – 1885, P.87

(٢) نقلا عن شرح ارجوزة الشيخ الرئيس

الطبيب ان يوهم العليل بالصحة وان كان غير واثق بها "ـ وقال " الاطباء الاحداث الذين لا تجربة لهم قتالون " ـ وقال "يجب على المريض ان يقتصر على طبيب يثق به فخطأه في جنب صوابه يسير لان من استعمل اطباء كثيرين وقع في خطاء الجميع " ـ وقال "اذا استطاع الطبيب ان يعالج المرضى بالاغذية دون الادوية فقد وافقته السعادة " ـ وقال " اذا كان الطبيب حاذقاً والصيدلي صادقاً والمريض موافقاً فما اقلّ لبث العلة "

وجاء بعد الرازي عليّ بن العباس المجوسي الاهوازيّ المعروف بالملكي تلميذ ابي ماهر وكان بعد الرازي بنحو ٥٠ سنة وهو مثلهُ عجمي صنف كتاب كامل الصناعة لعضد الدولة بن بويه الديلمي في ٢٠ مجلداً تحدّي بهِ جالينوس وكان اماماً بالعلم والعمل قال بعضهم علم القانون وعلاج الملكي لم يسبق اليهما وبعضهم يفضلهُ عن ابن سينا . تُرجم مصنفهُ الى اللاتينية . وطُبع سنة ١٤٩٢ م . ومما يؤثر عنه قولهُ "يجب على الاطباء الاحداث ان يتمرنوا على العمل في المارستان لانني استفدتُ كثيراً بما تحرينهُ من التجارب فيهِ " . ونبغ ابن سينا في القرن العاشر وكان من تلامذة مدرسة بغداد وهو ابو علي الحسين بن عبدالله بن الحسين بن علي بن سينا ويعرف بالشيخ الرئيس ولد في بخارا

سنة ٣٧٠ هـ ــ ٩٨٠م • وتوفي بالاسهال في همذان سنة ٤٢٨هـ ــ ١٠٣٦ م كان فيلسوف الزمان • برع في الطب والفلسفة والطبيعيات والمنطق والرياضيات والفقه واتقن اقليدس والمجسطي وفاق في علم الطب اهل زمانه ثم اتصل بخدمة نوح بن منصور الساماني وسأله ُ ان يمكنّهُ من الدخول الى خزانة كتبه ِ فاذن لهُ فرأى فيها شيئاً من كتب الاوائل لم يكن في ايدي الناس فحصل منها على فوائد كثيرة وفي رواية انهُ احتال في حرق مكتبة بخارا ليتفرد بمصنفاته ِ وهذه الرواية لم تثبت • وتقلد الوزارة لشمس الدولة . ومؤلفاته ُ كثيرة في جميع العلوم والفنون منها كتاب الشفآء وكتاب اللواحق وكتاب الحاصل والمحصول نحو من ٢٠ مجلدًا وكتاب البر والاثم مجلدان وكتاب الانصاف جمع فيه كتب ارسطو في ٢٠ مجلدًا وكتاب لسان العرب في اللغة قال بعضهم لم يؤلف في اللغة مثلهُ وكتاب المبدإ والمعاد وكتاب الاشارات وكتاب التنبيهات وكتاب الحدود وكتاب عيون الحكمة والموجز في المنطق وكتاب تقاسيم العلوم والحكمة ولهُ المدخل الى علم الموسيقى ومقالة في الاجرام العلوية ومقالة في الرصد وكتاب تدبير النفس وشرح كتاب النفس لأرسطو وكتاب اُلْمَحَ في النحو ورسالة في

الزهد وفضيلتهِ على انهُ لم يكن زاهدًا كما يعلم من تاريخ حياتهِ ويحكى ان صاحباً لهُ لامهُ على اسرافهِ على نفسه فاجابهُ انني احب الدنيا قصيرة عريضة ولا احبها طويلة ضيقة . ولهُ كتاب تعبير الرؤيا ولهُ رسالة في الكيمياء ورسالة في القضاء والقدر ورسالة في مخارج الحروف ولهُ كتاب القولنج وكتاب الادوية القلبية ورسالة في خط الاستواء ومقالة في حد الجسم وغير ذلك في الاصول والفروع وفي علم الحديث ولهُ نظمٌ رائق منهُ قولهُ

عدوُّكَ من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحابِ
لان السقمَ اكثرُ ما تراهُ يكونُ من الطعامِ او الشرابِ

ولهُ في النفس قصيدة بديعة شرحها بعض العلماء قال في مطلعها

هبطت اليكَ من المحلّ الارفعِ ورقاءُ ذات تعززٍ وتمنّعِ

ولهُ الارجوزة المشهورة في علم الطب وعملهِ قال فيها الامام مروان بن زهر انها محيطة بجميع كليات الطب وانها افضل من كتب كثيرة وقد شرحها كثير من العلماء منهم الفيلسوف ابن رشد والعلامة الشيرازي . واحسن كتاب ألفهُ القانون وهو مشهور بقي ستة قرون معولاً عليه في علم الطب وعملهِ حتى عند الاوربيين الذين ترجموهُ الى لغاتهم وكانوا يتعلمونهُ في مدارسهم وطبعوه

سنة ١٤٧٦ وذلك بعد اختراع آلة الطباعة بنحو ٣٠ سنة واذا عرفتَ ما تقدم لم تستغرب قولهم " كان الطب معدوماً فأوجدهُ بقراط وكان ميتاً فاحياهُ جالينوس وكان متفرقاً فجمعهُ الرازي وكان ناقصاً فكملهُ ابن سينا "

ومن فلاسفة العرب لذلك العهد الفارابي وهو محمد بن محمد بن اوزلغ بن طرخان من فاراب مدينة من مدن الترك صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى اخذ عنهُ الرئيس ابن سينا . طاف البلاد وقال اني لاعرف اكثر من سبعين لساناً وتوفي في دمشق سنة ٣٣٩ هـ . ومنهم ابن ابي صادق عبد الرحمن بن علي النيسابوري برع في العلوم الحكمية وكان من تلامذة الرئيس ابن سينا . توفي سنة ٤٥٩ هـ . ومنهم الامام الاستاذ موفق الدين ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي البغدادي عرف بابن اللباد وكان جالينوس الزمان وبقراط الوقت برع في اللغة العربية والفلسفة واصول الطب وفروعهِ وكان كثير العناية بكتب ارسطو صنف مائة وثمانين مصنفاً وردَّ على ابن سينا رداً شنيعاً حيث صنف في علم الكيمياء توفي سنة ٦٢٦ هـ — ١٢٣٠ م . ومنهم ابن نفيس عليُّ ابن ابي الحزم القرشي شيخ الاطباء في عصرهِ وامامهم برع في

الطب وكان يملي ويدرس ويصنف في المجلس الواحد وجميع مصنفاته من حفظه · صنف كتاب الشامل وبيّض منه نحو ١٠٠ مجلد وصنف المهذب في صناعة الكحل (امراض العيون) ولم يسبق الى مثله توفي سنة ١٢٨٧ · ومنهم ابو الفرج يعقوب بن اسحق القف من نصارى الكرك كان حكيماً رياضياً برع في الطب واشتهر بالجراحة وخدم في قلعة عجلون ثم في قلعة دمشق ومن مصنفاته كتاب الشافي في الطب وكتاب شرح كليات قانون ابن سينا في ٦ مجلدات وكتاب شرح فصول بقراط مجلدان وهو كافٍ للدلالة على براعته ودقة بحثه وسعة اطلاعه وصحة نقده ومن مصنفاته كتاب العمدة في صناعة الجراح ٢٠ مقالة ذكر فيه جميع ما يحتاج اليه الجراح وله مؤلفات أُخرى توفي ١٢٨٤ ومنهم ابن ابي اصيبعة صاحب عيون الانباء في تاريخ الاطباء ولد في دمشق سنة ١٢٠٣ وتوفي فيها سنة ١٢٦٩ م · واشتهر في ذلك القرن عليٌّ بن عمر وكان كحالاً منشأهُ مصر وكانت امراض العيون فيها كثيرة كما هي الآن ومن مشاهير علماء اليهود الميموني وكان ميالاً الى الفلسفة اكثر من الطب جاء من اسبانيا الى مصر وتوفي سنة ١٢٠٤ م · والف كتبهُ باللغة العربية

وفي تلك القرون حملت مصابيح الحكمة من مدينة بغداد الى سائر المدن الاسلامية فلم تخلُ مدينة من مدرسة للطب ومارستان لتطبيب المرضى ومكتبة او مكاتب تشتمل على الوف الالوف من الكتب الجليلة في جميع العلوم والفنون . ولو شئنا استقصاء ما ذكره المؤرخون عن بناء المدارس وبيوت المرضى والمكاتب لطال بنا المجال فنقتصر على ذكر شيء من ذلك للدلالة على ما كان عليهِ ملوك الاسلام من العناية بالامة والنظر في مصالحها وسعادتها وما ادّى اليه الاهمال من ضياع هذهِ الكنوز النفيسة ليعتبر من ألقى السمع وهو شهيد . فقد ذكروا ان نور الدين بن الشهيد اسر بعض ملوك الافرنج وقصد قتله ففدى نفسهُ بتسليم خمسة قلاع وخمسماية الف دينار انفقها نور الدين كلها على عمار مارستانهِ في دمشق . وحدث ان الملك المنصور لما توجه وهو امير الى غزاة الروم في ايام الظاهر بيبرس سنة٦٧٥هـ اصابهُ بدمشق قولنج عظيم فعالجهُ الاطباء بادوية اخذت من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فاعجب به ونذر ان اتاهُ الله الملك ان يبني مارستانًا فلما تسلطن بنى مارستانهُ الكبير المعروف بالمنصوري بخط بين القصرين من القاهرة افرد لكل طائفة من المرضى موضعًا

فيه فجعل اواوين المارستان الاربعة للمرضى بالحميات ونحوها وافرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنسآء ومكانًا للمبرودين ينقسم الى قسمين قسم للرجال وقسم للنسآء وجعل المآء يجري في جميع هذه الاماكن وافرد مكانًا لطبخ الطعام والاشربة والادوية ومكانًا لتركيب المعاجين والاكحال والشيافات ... ومكانًا يجلس فيه رئيس الاطباء لالقآء درس الطب . وجعلهُ سبيلاً لكل من يرد عليه من غني وفقير . اما المارستان العتيق فقد بناهُ صلاح الدين يوسف بن ايوب واستخدم لهُ اطبآء وطبائعيين وجراحين وخدامًا ووجد الناس بهِ رفقًا واليهِ مستروحًا وبه نفعًا وكذلك بمصر امر بفتح مارستانها القديم . واول مارستان بني في مصر بعد الفتح انشأهُ احمد بن طولون وانفق على بنائهِ ستين الف دينار [1] واذا كان كافور الاخشيدي بني مارستانًا في القاهرة فباي عين ينظر الآن امرآؤنا وكبرآؤنا مارستانات الافرنج تبنى في ديارهم ولايحزنون

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاحُ

---

(١) راجع الجزء الثاني من الخطط والآثار للمقريزى صفحة ٤٠٦

نبذة ثالثة

في الطب العربي في المغرب

ولم يكن الشرق وحدهُ مطلع شموس المعارف والحكمة ومجلى انوار فلاسفة العرب فقد كان للغرب من ذلك الحظ الاوفر على عهد الخلفاء الامويين وقد انشأ الحكم بن هشام في قرطبة ندوةً علميّة كان العلماء يتقاطرون اليها من جميع الامصار كما كانوا يتقاطرون الى الندوة العلمية التي انشأها المأمون في بغداد وارسل الوفود الى جميع الجهات لمشترى الكتب ونسخها فجمع مكتبة كانت في القرن العاشر تاجاً على مفرق الغرب وسعت ستمائة الف مجلد وكان برنامجها في ٤٤ مجلداً وقال بعضهم[1] انها كانت تشتمل على ٢٨٤٠٠٠ وهو مقدار يرى المتأمل فيه عظمة الدولة العربية في الاندلس وشدة عنايتها برفع منار العلم اذ لم تكن الطباعة معروفةً وطريقة استحصال الكتب لم تكن سهلةً كما في هذه الايام. ومما امتازت بهِ قرطبة ايضاً مدرستها الجامعة التي كان يأمُّها طلاب الحكمة من جميع الامصار وقد تعلم فيها بعض عظماء الافرنج في زمن

(1) Laboulbène. V. la revue scientifique; tome XXXII

جاهليتهم ولما ذاقوا لذة العلم وتبينوا منافعه دفعوا الى الاقتداء بالعرب .وانشأ فيها محمد بن عليٍّ حديقة غناء لاجل درس علم النبات . ومما قيل في وصف قرطبة

باربعٍ فاقتِ الاقطارَ قرطبةٌ ... وهنَّ قنطرةُ الوادي وجامِعها
هاتانِ ثنتانِ والزهراء ثالثةٌ ... والعلمُ افضلُ شيءٍ وهوَ رابعها

ومما يدلُّ على رواج بضاعة العلم عند العرب في الاندلس كثرة المدارس الطبية فيها فقد أُنشيء في اشبيلية مدرسة كبرى نبغ فيها كثيرٌ من مشاهير الحكماء وكان في طُليطلة مدرسة أخرى للطب توهج فيها نور الحكمة وفي مدينة مرسية مدرسة ثالثة لاتقلُّ سناء عن غيرها من تلك المدارس الزاهرة وقد امتاز الاندلسيون بالتأنق في الحضارة والمدنية كما امتاز علماؤهم بالتدقيق في المباحث الفلسفية واستنباط كثيرٍ من المبادئ التي بُنيت عليها المكتشفات العلمية التي هي من مفاخر هذا العصر ولا ابالغ اذا قلت إن مبدأ مذهب دَرْوِن في التحويل والارتقاء مأخوذ عن العرب ولديَّ مصنف محمد بن احمد الورّاق المعروف "بالكتبي" في علم الطبائع فمما قاله في الكلام على طبائع القرد "هذا الحيوان عند المتكامين في الطبائع مركبٌ من انسان وبهيمة وهو من تدريج الطبيعة من البهيمية الى الانسان

(كذا) وهو يحاكي الانسان بصورته وافعاله .... " اه بحروفه ونحن نرى دَروِن يدعي بان جدّه جراسيموس اول من قال بمبدإ التحول في الحيوانات منكراً على لمَرك الفرنسوي فضل الاسبقية [١] وانما الفضل للكتبي الذي اوضح هذه الحقيقة بصريح العبارة قبل ان يوجد لمَرك وجراسيموس ودَروِن بقرون . ومن يتأمل في كلام عبدالله البكري صاحب كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار يتعجب كيف حوَّم ببصيرته على الآراء الشائعة الآن بعد ان كشف العلامة بستور بتجاربه البديعة مبادئ الفساد والتعفن واوضح حقيقة تولد الجراثيم الوبيلة ومنفعة التلقيح . قال في الكتاب الثاني عشر من مؤلفه المشار اليه في الكلام على الهوام والحشرات ما نصه " اذا اوقدتَ نارًا في وسط غيضة لترى ما يغشي النار من الحشرات بدت لك صورٌ عجيبة واشكالٌ غريبة . على ان الخلق الذي يغشى النار يختلف باختلاف المواضع من الغياض والجبال والسهول والبراري فان في كل بقعة من هذه البقاع اشكالاً من المخلوقات مخالفةً لما في البقعة الاخرى

---

(1) V. notice historique sur l'origine des espèces par Charles Darwin

وقد خُلقت هذهِ الحشرات من المواد الفاسدة والعفونات الكائنة ليصفو الجوُّ منها ولا يعرض لهُ الفساد الذي هو سبب الوبآء وهلاك الحيوان والنبات · والذي يحقق ذلك اننا نرى الذباب والديدان في دكان القصَّاب والدباس ولا نراها في دكان البزاز والحداد فهي تمتصُّ العفونات وتُتغذَّى بها فيصفو الهوآءُ منها ويسلم من الوبآء (كذا) وجعل صغارها. مأكولاً لكبارها والاَّ ملأت وجه الارض منها " الى ان قال " واعجب مـا في هذا النوع ان كلَّما جُعل سبباً اضرر حيوانٍ جُعل لحمهُ دفعاً لذلك الضرر فان الاطبآء الاقدمين وجدوا في لحم الحية قوةً تقاوم السموم فأدخلوا لحمها في الترياق · والتجربة دلت على ان من لدغتهُ العقرب يقتلها ويطلي موضع اللدغ برطوبة بدنها فان الالم يسكن في الحال " والكتاب المذكور يشتمل على كثيرٍ من صور النباتات بالوانها الطبيعية فهو من الآثار القديمة الباقية الى الآن للدلالة على فضل العرب ويظهر ان مؤلفهُ متأخر عن ابن البيطار العشاب لانهُ يعتمد عليهِ كثيرًا في النقل اما سائر اجزآء الكتاب فلم اهتدِ حتى الآن اليها

ومن فلاسفة العرب في الاندلس ابو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفي سنة ١٠١٣ وهو اول طبيب طُبعت مؤلفاتهُ

مترجمةً الى اللاتينية في مدينة البندقية · ألف كتاب التصريف في ٣٠ مجلداً وقد مدح العلامة هلّر موءلفهُ المذكور ولا سيما الكتاب الاول منه في المادة الطبية لانهُ لم يتحدَّ غيرهُ بالنقل بل اعتمد على نفسهِ في تحرّي الحقائق ولهُ كتاب القياس والتجربة وهذا الكتاب من ابدع كتب الطب القديم يشتمل القسم الذي يبحث فيه عن الجراحة على صور الكسور والخلع والآلات الجراحية

ومنهم ابن وافد ابو المطّرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى بن وافد اللخمي من طُليطلة برع في الطب والفلسفة وكان مولعاً بدرس مصنفات ارسطو وجالينوس وكان يعوّل في العلاج على الادوية البسيطة ولهُ موءلفات كثيرة ضمنها مقالات ديسقوريدس وجالينوس توفي سنة ١٠٧٤

وكان في الاندلس ابناءُ زُهر بمثابة ابناءُ بختيشوع وحنين وماسويهِ في بغداد واشهرهم ابو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الايادي الاشبيلي صاحب كتاب التيسير اخذ الطب عن ابيهِ وجدهِ وكان يتحدَّى جالينوس الاَّ انهُ كثيراً ما عقَّب عليه وردَّ على ما ترآى لهُ من مظانّ الشبهات فيهِ · كان حاذقاً محققاً مدققاً ذا منزلة رفيعة ويظهر انهُ لم يَطبَّبْ كسائر اطباءُ زمانهِ ولكنهُ كان يُستَشار في الامور المهمة · ومن حكاياتهم

عنهُ ان المهدي لما اخذ بلادا المغرب قرَّبهُ وأكرمهُ واتحفهُ بالعطايا ومما عمل له انهُ اخذ ادويةً مسهلة نقعها وسقى بمآئها كرمةً فحملت عنباً فاحمى الخليفة واعطاهُ عنقوداً منها فاكل منها عشر حبات فقال له يكفيك تموم عشرة مجالس لانك اكلت عشر حبات فكان كما قال [١] فتزايدت قيمتهُ عندهُ وعطاياهُ * قال الشيرازي وفي زمانهِ وصل القانون الى المغرب فلم يعجبهُ وصار يقطعهُ ويصرُّ بهِ الادوية · وهو استاذ ابن رشد توفي وعمرهُ ٩٢ سنة في اشبيليه سنة ٥٩٥ هـ ـ ١١٦٢ م

وكان ابن رشد يؤثر الفلسفة على الطب وهو الامام ابو الوليد محمد بن محمد القرطبي كان ابوهُ قاضي قضاة الاندلس فرباهُ على حب الفضيلة والعلم فبرع في الفقه وفي الحديث وفي الجدل وفي معرفة مذاهب المتقدمين ودرس الرياضات والطبيعيات والطب ثم صار مدرساً للفلسفة والفقة والطب في مدرسة قرطبة وكان أبيَّ النفس عيوفاً للمحاباة عرّض مرّةً بالخليفة فحرمهُ من مخالطة الناس الاَّ اليهود ورُمي بالزندقة فحجزت املاكهُ وهاج الشعب عليهِ فهرب الى فاس ولكنهُ ضبط فيها وأُكرهَ على

(١) خاتمه شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازى
Sédillot; histoire générale des arabes

الوقوف صاغراً بباب الجامع ليبصق المارون عليهِ ثم عاد الى قرطبة يجرُّ ذيول الشقآء وبعد ذلك دعاهُ يعقوب المنصور سلطان مراكش فحسنت حالهُ واستردَّ ما فقدهُ[1] وتوفي سنة ٥٩٩ هـ ـ ١١٩٨ م ٠الف كتباً كثيرة منها كتاب الكايات في عدة مجلدات شرح بهِ فلسفة ارسطو ولهُ شرح ارجوزة ابن سينا

وآخر جهابذة الطب في الاندلس الامام المدقق ابو محمد عبدالله بن صالح المعروف بابن البيطار وُلد في مالقة في نهاية القرن الثاني عشر وسافر مشارق الارض ومغاربها ليرى النبات في موضعهِ ويحقق صفاتهِ بالعيان منكّباً عن خطة التحدي والتقليد ومن طالع كتابهُ الجامع لمفردات الادوية والاغذية تبين ما كان عليهِ من ذكاء النفس وكثرة الحفظ وصحة النقد وسعة المعرفة لم يترك هفوةً اطلع عليها في كتب المتقدمين الاَّ نبَّهَ عليها توفي في دمشق سنة ٦٤٦ هـ ـ ١٢٨٤ م

هؤلاء هم اشهر حكماء العرب الذين اهتدى الاوربيون بهداهم واقتفوا آثارهم ايام كان الجهل ضارباً اطنابهُ بينهم وكانوا

(1) V. les médecins arabes; Revue scientifique tome XXXII de la collection P. 653

على حالة من الهمجية اقلّ ما قيل فيها انهم لم يكونوا يعرفون للقميص معنىً حتى استعاروا اسمهُ من العربية كما استعرنا منهم الآن اكثر اسماء ملابسنا كالبنطلون والبلطو فانقلبت الآية وكذلك الدهر بالناس قُلَّب . ولا شك ان علة هذا الانقلاب غلبةُ الجهل وترك العلم على ما يشهد العيان وتثبت الآثار . فلم يكن يوجد منهم من يعرف القرآءة والكتابة الا بعض الرهبان وكان التشيع الديني يمزّقهم كل ممزّق وكانت الخرافات والاضاليل والعبودية تعمي بصائرهم وكان الطبيب عندهم ساحرًا دجالاً بيطارًا والصيدليّ حائكاً عطارًا والجراح حلاقاً مهذارًا . واول شعاع من نور العلم ضاءت بهِ آفاقهم انما انعكس عليهم من العرب مجاوريهم في الاندلس او مخالطيهم في حروبهم معهم ولا سيما الحروب الصليبية فتعلموا فلسفة ارسطو من مؤلفات ابن رشد وهندسة اقليدس من ترجمات الحجاج بن مطر واسحق بن حنين وثابت بن قرة والطب البقراطيّ من قانون ابن سينا ومصنفات الرازي والكيمياء من جابر بن حيان والنبات من ابن البيطار والرياضيات والطبيعيات والتنجيم من ترجمة المجسطي ومصنفات العرب الكثيرة [1] التي لا يسعنا بيانها الآن . وكانت مدارس

(1) V. l'histoire générale des arabes par Sédillot

الاندلس ولا سيما قرطبة محط رحالهم في طلب العلم واول من
علم في مدارسهم اساتذة تلقوا العلوم عن العرب كما يعلم من
تاريخ مدرسة سلرنا في ايطاليا وهي اقدم مدرسة في اوروبا ولم
يكن مسموحاً للنسآء عندهم ان يتعلمن حتى القرآءة البسيطة والكتابة
وكان التعليم بوجه العموم موكولاً الى خدمة الدين وبقي كذلك
في فرنسا الى بدآءة القرن الماضي فلم يتقرر فيها نظام المعارف
العمومية الاَّ بعد الثورة التي ثلَّ بها عرش الاستبداد وتحررت
العقول من ربقة الاستعباد · وهذه لغاتهم تشهد عليهم كما يشهد التاريخ
وعقلاؤهم يقرُّون بان العرب كانوا اساتذتهم فلفظة الجبر algèbre
دليلٌ على انهم اخذوا هذا العلم عن العرب والكيمياء alchimie تدل
ايضاً على انهم اعتمدوا على المؤلفات العربية في هذا الفن بعد ان امر
الامبراطور فردريك الثاني بترجمة الكتب العربية بعد الحروب
الصليبية · والصفر chifre دليل على انهم لم يكونوا يعرفون الارقام
وهم حتى الآن يسمونها بالارقام العربية وصورها الافرنجية هي
نفس الصور التي استعملها العرب قديماً واكثر الاسمآء في علم
الهيئة عربية كالعنكبوت alancabuth والدبران aldébaran
والطير althair والغول alghol والرجل rigel والسمت
semt ثم تصرفوا بلفظها فقالوا والنظير zénith nadir ومما

اخذوهُ عنهم في الملاحة اميرال amiral والاسطول escadre مأخوذة من الطلياني في القرن الخامس عشر وكان يلفظونها eshiele وفي التشريح الصافن safène وفي الكيمياء الانبيق alambic والاكسير elixir والقلي alcali وفي الموادالطبية الترياق thériaque والكحل [1] alcohol والشراب sirop والجلاب julep والرب rob واللعوق looch

(١) ويكتبه المترجمون الكؤول alcool وكانوا يكتبونه الكحول Alcohol تبعا للفرنسويين قبل ان قررت جمعيه العلوم الفرنسويه حذف الحرف h من هذه اللفظه وكفى بذلك دليلا على ضياع هذه اللغة وامتهانها من ابنائها فيما حقها ان تشرف به اما اصل اللفظة فقد اجمعوا على انها الكحل بمعنى الاثمد وانما خفي عليهم توجيه معنى الاثمد لروح الخمر . قال ليتراى فى معجمه الكبير انهما يلتقيان فى معنى اللطافة والدقة • واتذكر انني سمعت من الدكتور فانديك رحمه الله اذ كان يدرس الكيماء فى مدرسة بيروت الكلية روايه لو صح سندها لكانت هي الحقيقه بعينها قال « من فنون العرب فى الاندلس استقطار روح الخمر واسرافهم باستعماله شرابا وقد عرفوا الانتيمون بخاصته السامه وانه من الكحل فكانوا اذا قصدوا اغتيال احد وضعوا الانتيمون فى الشراب فاذا سئل عنه قالوا سقوه الكحل • يكنون بذلك عن موته مسموما • وعليه اطلاق لفظه الكحل على المشروبات الروحيه »

والبادزهر bézoard والترهندي tamarin والسنا séné والنفط naphte والكمون cumin والانيسون anis والكراويا[1] carvi وغير ذلك مما يطول الكلام عليه ولا غرابة في ذلك فهم انما تعلموا في مدارس العرب ونقلوا كتب العرب الى لغاتهم وطبعوها قبل ان يعتنوا بطبع غيرها من الكتب لانهم اعتمدوا عليها في التدريس والتعليم ولا يخفى ان آلة الطباعة اخترعها يوحنا غوتنبرج سنة ١٤٤٥م واول كتاب طُبع بها مترجمًا . الى اللغة اللاتينية هو كتاب التصريف للامام ابي القاسم الزهراوي المتقدم ذكرهُ وذلك في مدينة البندقية سنة ١٤٧١ م . ثم طُبع قانون ابن سينا سنة ١٤٧٦ م . وبعد ذلك طُبعت مؤلفات الرازي سنة ١٤٨١ م . ثم كليات ابن رشد سنة ١٤٨٢ ــ ١٤٨٤ م . ثم طُبع تصنيف علي بن عباس الاهوازي المعروف بالملكي سنة ١٤٩٢ م مع ان مصنف شلشيوس انما طُبع سنة ١٤٧٨ م . ومصنفات

---

(١) تنبيه ــ قد ذكرت بعض الالفاظ المنقولة عن العربيه الى الفرنسويه بقطع النظر عن كونها عربيه الاصل اومعربه ولم اتصد لبيان هذه الالفاظ في سائر اللغات لان اللغه الفرنسويه اكثر شيوعا بيننا

جالينوس طُبعت سنة ١٤٨٠ م وهي السنة التي طبعت فيها مؤلفات الرازي . فتأمل

الفصل الرابع

في ماهية الطب القديم

قد تقدم (صفحة ١١٢) ان بقراط جرى في تحرير اصول الطب على القياس والتجربة فهو اذاً علم وعمل وعليهِ قول ابن سينا في مقدمة أُرجوزتهِ المشهورة

الطبُّ حفظُ صحةٍ برءُ مَرَضْ   في بَدَنٍ من سَببٍ عنهُ عَرَضْ
قسمتهُ الأُولى لعلمٍ وعَملْ   والعلمُ في ثلاثةٍ قد اكتملْ
سبعُ طبيعاتٍ من الأمورِ   وستةٌ وكلُّها ضروري
ثمَّ ثلاثٌ سُطّرت في الكُتُبِ   من مَرَضٍ وعَرَضٍ وسَببِ

وبناءً عليهِ يكون علم الطب عندهم متوقفاً على معرفة الامور الطبيعية السبعة والامور الضرورية الستة وعلى معرفة الامراض واعراضها واسبابها . واما عملهُ فيراد بهِ مزاولة صناعة العلاج إِما بالجراحة وإِما بالدواءِ وتدبيرِ الغذاءِ وعليهِ قول الشيخ الرئيس في ارجوزتهِ المذكورة

وعِلمُ الطبِّ على قسمينِ   فواحدٌ يُعمل باليدَينِ
وغيرهُ يُعملُ بالدوآءِ   وما يقدَّمْ منِ الغذآءِ

أمّا الامور الطبيعية السبعة فهي الاركان والمزاج والأخلاط والاعضآء والقوى والارواح والافعال ولكل منها احكامٌ وخصائص يطول الكلام عليها . قالوا ان الاجسام باسرها مركبة من الهيولى والصورة . وان الهيولى والعنصر والمادة والأسطقس والاصل والركن والموضوع متحدة بالذات مختلفة بالاعتبار لان الشيء الذي يتكون منهُ شيءٌ آخر لا بدَّ وان يكون قابلاً لصورته فباعتبار كونهِ قابلاً للصورة مطلقاً يُسمى هيولى وباعتبار كونهِ قابلاً لصورةٍ معينةٍ يُسمى مادةً وباعتبار كون الصورة حاصلةً فيه بالفعل يسمى موضوعاً وباعتبار كونهِ جزأً للمركب يُسمى ركناً وباعتبار كونهِ يبتديءُ منهُ التركيب يسمى عنصراً وباعتبار كونهِ ينتهي اليهِ التحليل فيكون اصغر جزء في المركَّب يُسمى اسطقساً وباعتبار كون ذلك المركب مأخوذاً منهُ يُسمى اصلاً فالركن ابسط شيء في المركَّب ويقال على الاجزآء الاولية لبدن الانسان وهي مكونة من العناصر الاربعة على ما يؤخذ بالاستقرآء وهي النار والمآء والهوآء والتراب . وقالوا ان البدن مؤلف من الاعضآء الآليّة وهذه الاعضآء تتكوَّن من الدم

وهو من الغذآء وهو اما نبات او حيوان وهو ايضاً من النبات والنبات انما يقوم بالمآء والهوآء والتراب وحرارة الشمس فمرجع التكوين الي العناصر المذكورة ٠ والنار بالطبع حارة يابسة والمآء رطب بارد والارض رطبة يابسة والهوآء رطب حار * واما الامزجة فهي كيفيات متشابهة تحدث من تفاعل الاركان بقواها المتضادة وهي على ثماني حالات وكلٌ مقابلٍ ينقسم الى ثمانية اقسام فالخارجة عن الاعتدال الطبي اربعة وستون والمعتدل الحقيقي الذي لا وجود لهُ واحد فالجملة ثلاثة وسبعون ولهم في بيان ذلك كلام طويل لا محل لها الآن * واما الاخلاط فهي اجسام رطبة سيالة تتولد من الغذآء وهي الدم والصفرآء والبلغم والسودآء وذلك ان الغذآء متى انهضم في المعدة يستحيل الى الكيلوس وينجذب الصافي منهُ الى الكبد فينطبخ فيهِ فيحصل فيهِ شيءٌ كالرغوة وشيءٌ كالرسوب وشيءٌ فجٌّ فالرغوة هي الصفرآء والرسوب هي السودآء والشيء الفج هو البلغم واما المصفى من هذهِ الجملة نضيجاً فهو الدم * واما الاعضآء فهي الاجسام المتولدة من اول مزاج الاخلاط وتنقسم الى رئيسية وهي القلب وفيهِ مبدأ قوة الحياة والدماغ وفيهِ مبدأ قوة الحس والحركة والكبد وفيهِ مبدأ التغذية * واما القوى فهي اما

طبيعية محلها الكبد او حيوانية محلها القلب او نفسانية محلهـا الدماغ ولكل منها اقسام ليس من غرضنا بيانها الآن * واما الارواح فهي اجسام تحدث عن بخارية الاخلاط ولطافتهـا وتنقسم الى طبيعية وهي التي تنفذ من الكبد في العروق الغير الضوارب (الاوردة) الى جميع البدن والى حيوانية وهي التي تنفذ من القلب في العروق الضوارب (الشرايين) الى جميع البدن والى نفسانية وهي التي تنفذ من الدماغ في العصب الى اقاصي البدن

واما الستة الضرورية فهي (١) الهوآء و(٢) الغذآء و(٣) النوم واليقظة و (٤) الحركة والسكون و(٥) الاستفراغ و (٦) الأحداث النفسانية · وكل ذلك يستلزم معرفةً مدققةً للتوصل الى معرفة حقيقة المرض واسبابه واعراضه وبالتالي الى معرفة علاجه . وقالوا في حدّ المرض انه حالة للبدن خارجة عن المجرى الطبيعي معها ينال الافعال الضرر بلا واسطة وان الاعراض علامات يعرف بها الخلل الحادث ومحلهُ من البدن وسببهـا انفعال الاعضآء بما يُجرى فيها على غير النظام الطبيعي لان الطبيعة تحاول اصلاح هذا الخلل وتغالب قواها قواهُ فاما ان تقهرهُ فتحدث الصحة واما ان يقهرها فيحدث الموت فالطبيب

النطاسيُّ اذًا انما "هو خادم الطبيعة" التي تحذو الافعالُ الطبيةُ حذوَها فيجب عليهِ ان يقويها متى وجدها ناهضة بشفآءِ مرض او يتركها على حالها وان يقوّيها ويقابل مقاومها بما يضادّهُ متى وجدها مقصرةً وان وجدها عادمة آلةٍ او مسلكٍ هيّأ ذلك لها مثل رد خلع وتسوية كسر وفتح عرق كل ذلك بحسب الامكان . ووضعوا للمعالجة بالدوآءِ قوانين هي اولاً اختبار كيفية الدوآءِ من حرارتهِ وبرودتهِ ورطوبتهِ ويبسهِ وذلك بعد معرفة نوع المرض هل هو حارٌّ او باردٌ او غير ذلك ليعالج بالضدّ وتُحفظ الصحة بالمثل وثانياً اختيار وزنهِ هل يؤخذ منهُ كثير او قليل وثالثاً وقت استعمالهِ والوقت الحاضر من اوقات الفصول واوقات المرض وهي اربعة الابتدآء والتزّيد والوقوف والانحطاط فيعطيهِ ما يناسبهُ في تلك الاوقات

هذهِ هي خلاصة ما ذهب اليهِ الحكمآء في الطب القديم اخذتها عن عدّةٍ من كتبهم المعتبرة ولم اتصدَّ لبيان ما بنوا عليها من الآراءِ والمذاهب وما توسعوا فيها من الشرح والتفصيل وما تحرّوا من المباحث والمطالب وانما قصدت الاشارة الى الاصول التي اتخذوها اساساً لمعارفهم لتتسهل المقابلة بينها وبين الاصول المتخذة الآن فتُدفَع مزاعم الذين يهرفون بما لا يعرفون

ويكتبون عنهم وهم لا يقرأون واذا قرأوا لا يفهمون ويُعلَم ان الطب انما وصل الى حالتهِ الحاضرة من الاتقان واتساع المدى وصحة المبداءِ بعد ان تدرج في مراتب الارتقاء من طور الى طور حتى وصل الينا في هذا الطور وقد كاد يبلغ ذروة الكمال

وقد مرَّ بك ان القدماء بنوا مذهبهم في تركيب بدن الانسان من الاركان الاربعة على تعليم بقراط مستدلاً على ذلك بان العناصر اربعة وهي الماء والهواء والنار والتراب وان هذا المذهب بقي شائعًا معوَّلاً عليه حتى الى امدٍ قريب وذلك لانهم توهموا ان العناصر الاربعة انما هي بسيطة ولم يكن لديهم من الوسائط ما يهتدون بهِ الى معرفة حقيقتها الا الحدس والظن والانسان مطبوعٌ على حب التقليد والتحدي فلم تكن مخالفة هذا المذهب بالامر الهين طالما لم يثبت نقيضهُ ببرهان التجربة والمشاهدة · على ان الكيماويين من العرب قد مهدوا السبيل لمعرفة تركيب العناصر بما اجروا من التجارب لتحويل المعادن الى فضةٍ وذهب واقتفى أثارهم بذلك بعض الرهبان كروجر باكون واول ما اهتدوا اليهِ تحويل الزنجفر الى الزئبق والكبريت ثم كشف بريستلي الانكليزي وشيلي الاسوجي

ولافوازياي الفرنساوي غاز الأُكسجن سنة ١٩٧٤ وسنة ١٧٧٥ وكشف كافنديش الانكليزي غاز الهيدروجن سنة ١٧٦٦ وكشف الدكتور رثرُفرد النيتروجن سنة ١٧٧٢ وسماهُ لافوازياي ازوتاً لعدم صلاحيتهِ للحياة فثبت كون المآء مركباً من الهيدورجن والأُكسجن وكون الهوآء مركباً من الاوكسجن والازوت وغيرهما وان النار ظاهرة تتولد من اتحاد مادة كربونية بغاز الأُوكسجن في حالة الاشتعال وان التراب مركب من عناصر كثيرة يطول شرحها .

وكان التشريح محرَّماً على القدمآء فلم يكن من سبيل لمعرفة منافع الاعضآء الا بقدر ما توصل اليهِ بقراط بحدسهِ الصائب وذكائهِ الغريب من النظر الى الحيوانات التي كانت تقدَّم في هياكلهم ضحايا لآلهتهم واول من مارس التشريح من القدمآء هيروفيلوس الخلقيدوني في مدينة قوس فهاج اهلها عليهِ حتى اضطروهُ الى الهرب فجآء الى الاسكندرية واشتغل في مدرستها بتشريح الحيوانات وجثث المحكوم عليهم بالاعدام واتهم بتشريح الاحيآء وتبعهُ ايرازستراتوس من مدينة قيدوس فتحققا اشيآء كثيرة مما لم تصل اليه معرفة الذين تقدموهما واخذ عنهما جالينوس واشتغل ايضاً بالتشريح في مدرسة

الاسكندرية وألف الكتب التي اهتدى بها علمآء العرب وتوسع كثيرًا بمباحثهِ الاَّ انهُ تابع ارسطو بزعمهِ ان الدم ينفذ من احد بطيني القلب الى الآخر بواسطة بطين ثالث سماهُ دهايزًا وربما حداهُ الى هذا الزعم مشاهدتهُ في أجنة الحيونات اللبونة ثقبًا بين البطينين لان الدم الشرياني يختلط بالوريدي في الاجنة وهذا الثقب يُسدُّ بعد الولادة · وقال ان الشرايين تحمل الروح والاوردة تحمل الدم · ومن يتأمل في مؤلفات اطبآء العرب يرى ان معارفهم بالتشريح لم تكن قاصرةً الى الحد الذي توهمهُ بعضهم بحجة ان التشريح كان محرمًا عليهم · قالوا في تشريح القلب ما نصه " اما القلب فانهُ جسمٌ مخروطي كهيئة الصنوبر قاعدتهُ وسط الصدر ورأسهُ الى جانب اليسار وهو احمر رُمَّاني مركَّبٌ من اللحم والليف والغشآء الصلب (وهو الصمامات) المنسج من ثلاثة انواع من الليف الطويل الجاذب والعريض الدافع والمورب الماسك ليكون لهُ اصناف الحركات وفنون الافعال · وهو منبع الحرارة الغريزية ولهُ بطنان احدهما الايمن وهو مملوءٌ بالدم الكثير والروح القليل ولهُ مجاري يجري فيها من القلب الى الرئة دمُ الغذآء ومن الرئة الى القلب الهوآء والثاني الايسر وهو مملوء بالروح الكثير والدم القليل وهو منبت

الشرايين . ومن ذلك يعلم ان اطباء العرب لم يبعدوا كثيرًا عن معرفة حقيقة دورة الدم . فلو ابيح لهم اجراء التجارب على الحيوانات حيةً كما فعل هرفي في القرن السادس عشر لما قصروا عن مداهُ ومع ذلك فقد عرفوا ان منفعة الرئتين الترويح وهو عندهم نفض البخار الدخاني (الحامض الكربونيك)وجذب النسيم اليه(وهو الهواء النقي المشتمل على الأكسجن) . ومن ذلك يُعلم انهم حوّموا على الحقيقة بالحدس الصائب . وقالوا ان الدم اصل في تكوين الجسم الحيواني وان تغذية جميع الاعضاء انما تقوم به بحيث يتناول كلُّ جزءٍ منهُ ما يماثلهُ ويصلح لان يتشبَّهَ بهِ فيحصل التركيب والافراز ونتيجة ذلك النماء وطرح الفضول . وعرفوا الاعصاب وعددها ومنابتها من الدماغ والنخاع الفقري وانها تورد الحس وتصدر الحركة . وقيل ان جالينوس عرف ذلك بالتجربة حيث قطع في مواضع من النخاع الفقري طولاً وعرضاً كما فعل شارل بلّ في القرن الاخير فتحقق مصدر الحسّ والحركة في العصب الواحد . وفيما تقدم كفاية لتفنيد مزاعم الذين يقولون ان علماء العرب كانوا بعيدين عن الحقائق العلمية بمراحل وانهم لم يبتدعوا رأياً ولم يستنبطوا امراً

ولو عرفوا ليلى اقرّوا بفضلها　　وقالوا بأني في الثناء مُقصّرُ

الفصل الخامس

في الطب الحديث

نبذة اولى

في مدرسة سَلِرْنا

لامرآء في ان اصول الطب الحديث مبنيَّةٌ على اساس التحقيق لان العلم صار حرًّا بعد عتق الافكار من العبودية القديمة فلا يؤخذ الآن بمجرد الاذعان والتسليم لقول من قال ولو كان من جهابذة الفن بل بتحقيق كل قضية منهُ ببرهان التجربة والعيان فلولا اباحة علم التشريح واجرآء التجارب علي الحيوانات الحية لمعرفة منافع الاعضآء لبقيت اصول علم الطب من الاسرار الخفية التي ضُرب عليها حجاب الجهل ولولا التدقيق في اجرآء التجارب التي قصد بها تحويل المعادن الخسيسة الى المعادن النفيسة لما عُرفت طرق تحليل العناصر الكيماوية وتركيبها فلم يكن من سبيل لنقض آرآء الاقدمين المبنية على الحدس والتخمين . على ان الوصول الى تحقيق القضايا العلمية ببرهان التجربة والاختبار الشخصي لم يكن سهلاً ولا سيما في زمن

الاستبداد والهمجية بل كانت تحول دونهُ شبهات المروق عن الدين فمن حاول ذلك كان مخاطرًا بنفسهِ . حُكي عن روجر باكون وكان راهبًا نبغ في القرن الثالث عشر انهُ كان يزاول التجارب الكياوية ويرصد النجوم فحسبوهُ ساحرًا وطردوهُ من ديرهِ في باريس فالتجأ الى انكلترا موطنهِ وهناك اتهموهُ ايضًا بالسحر فسجنوهُ وضيقوا عليه مدة عشر سنين حتى عُلَّ ومات وقيل ان احد اصحابهِ سعى في اخراجهِ من السجن قبل وفاتهِ بمدة قصيرة [1] وفي آخر ساعةٍ في حياتهِ جاءَهُ الكاهن ليعرّفهُ حسب العادة فقال لهُ اندم على خطاياك فاجابهُ " انني نادم على ما جلبت لنفسي من الشقاء باجتهادي في مقاومة الجهل [2] . ولم يكن احدٌ من الاوربيين في ذلك الزمن آمنًا على نفسهِ ومطمئنًا في بيتهِ بل كان مهددًا في كل حين بفقد حياتهِ وخسارة مقتنياتهِ لمجرد تهمةٍ يسعى بها جواسيس مجمع التفتيش الديني ولذلك بقي علم الطب متوقفًا عدة قرون فلم يتقدم في سبيل النجاح الحقيقي الا في القرن التاسع عشر بعد ان عُتقت الافكار من قيود العبودية ورفع على نوادي العلم

(1) Worthies of science. by J. Stoughton
(2) Diederot; Introduction à la chymie; V. Revue scientifique, tome XXXIV P. 102

لوآء الحرية

واقدم جميع المدارس الطبية التي انشأها الاروبيون هي مدرسة سَلرنا[1] التي اقتبست انوار الحكمة المشرقية من العرب وقد اختلف الباحثون في زمن انشائها وفي الذين انشأوهـا لانهُ لايوجد في التاريخ نص صريح يتبيَّن منهُ اصلها. وجلُّ ما عرفوهُ من هذا القبيل مأخوذ عن قيود مدينة نابلي وعن روايات تقليدية ذُكرفيها ان الذين انشأوا هذه المدرسة اربعةٌ يمثلون الاجيال الاربعة المشهورة بالعلم في القرون الوسطى وهم العرب واليهود واليونان واللاتين . وزعم بعضهم ان قسطنطين الافريقي اسس هذهِ المدرسة سنة ١٠٧٥ على ان الاكثرين ينكرون ذلك ويثبتون وجود المدرسة وبيمارستانها قبل زمن قسطنطين المذكور ويدعون ان المدرسين فيها كان يُطلق عليهم لقب استاذ وقسطنطين المذكور لم يُعرف بهذا اللقب فلم يكن من اساتذتها وانما ترجم كتب العرب الى اللاتينية في جبل كاسينو قرب سَلرنا وادعاها لنفسهِ . وقال آخرون ان الرهبنة البنديكتية بنت هذهِ المدرسة في القرن التاسع او قبلهُ . ونسب غيرهم

1 V. les médecins arabes et l'école de Salerne; Revue scientifique, tome xxx II p. 647, 681

تأسيسها الى امرآء لمبرديا وكان الاساتذة فيها من الرهبان والعلمانيين · وذُكِر في قيود مدينة نابلي اسماء عدة اطباء نبغوا في مدرسة سلرنا منذ سنة ٨٤٦ منهم امرأة اسمها تروتا[1] عاشت سنة ١٠٥٩ والفت في امراض النساء والولادة وسائر علوم الطب وكان زوجها وابنها طبيبين

اما قسطنطين الافريقي فوُلد في قرطجنة في القرن الحادي عشر وسافر ٤٠ سنة في بلاد العرب والعجم والحبشة ومصر وعاد الى وطنهِ فاتهموهُ بالسحر وهموا بقتلهِ فلجأ الى ايطاليا وتعين كاتباً عند روبرت غويسكرد ثم اعتزل الخدمة ليترهب في دير مونتو كاسينو المختص بالرهبنة البنديكتية فتفرغ لترجمة كتب الطب البقراطي من العربيَّة الى اللاتينية وادعى انه مؤلفها وكانت مصنفات جالنيوس قد تُرجمت من العربية الى اللاتينية فانتشر مذهبهُ وسميت سلرْنا بالمدينة البقراطية · وفي منتصف القرن الثاني عشر انتشرت القصيدة المعروفة بمدرسة سلرْنا scola salernitana ولم يعرف ناظمها ولا يبعد ان يكون اكثرها مترجماً عن ارجوزة الشيخ الرئيس · وفي القرن الثالث عشر نبغ في المدرسة المذكورة الجراح روجر واشتهر بمؤلفهِ في الجراحة الذي اشترك في تأليفهِ ثلاثة

1 Trotula, Trotta ou Trocta

آخرون · وممن اشتهروا في ذلك القرن بترجمة الكتب العربية الى اللاتينية جيرار الكريموني [1] من تلامذة مدرسة طُلَيطلة ترجم من اللغة العربية الى اللاتينية سبعين مصنفاً في العلوم والطب. وكان بيمارستانها يقصدهُ المرضى من جميع الاقطار الاستشفاء من امراضهم

ومن الثابت ان مدرسة سلرْنا ارتقت الى قمة النجاح في ايام فريدزيك الثاني ملك صقلية سنة ١١٤٧ وامبراطور المانيا سنة ١٢١١ الى ١٢٥٠ [2] فهو الذي ضمَّ اليها المدارس الثانوية وجعلها مدرسة كلية تُعلَّم فيها العلوم الادبية والفلسفية قبل الطب وعين مدة درس العلوم الطبية خمس سنين يزاد عليها سنة لممارسة الصناعة في البيمارستان وسنة اخرى لدرس علم التشريح البشري اذا كان الطالب راغباً في مزوالة الجراحة· ومنحها حق اعطآء الشهادات القانونية لمستحقيها· وحظر التطبيب الا على الذين تخرجوا في هذه المدرسة وحصلوا على شهادتها · وجعل لمعاطاة الصيدلة نظاماً من مقتضاه ان كلّ صيدلي ضامنٌ لما يتعاطاه وان الاطبآء لايجوز لهم الاشتراك مع الصيادلة في الاتجار بالادوية ولا ان يختصوا انفسهم بدوآء لمنفعة خصوصية . وكان فريدريك المشار اليه محباً للعلم والعلمآء متخلقاً باخلاق كرام العرب حريصاً على جمع الكتب

1 Gèrard de Crémone «Lombardie».
2 V. la grande Encyclopédie.

وترجمتها الى لغة قومهِ . وكان العلماء يفدون اليه من كل صوب وجهة . فاجتمع في بلاطهِ الادباء والعلماء والحكماء والاطباء من عرب ويونان وطليان وفرنجة . وكان يخطب فيهم بلغاتهم ويباحثهم في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والطب لانه كان بارعاً في هذه العلوم فضلاً عن براعته في النثر والنظم باللغتين الطليانية واللاتينية فكان الشعراء لا يفارقون مجلسه . وهو الذي امر بترجمة مصنفات ارسطو وابن رشد والكيمياء والطب الى اللغة اللاتينية واستدعى علماء العرب من الاندلس ومن افريقيا لنشر العلوم في بلادهِ وقرب اليه الرياضي ليونارد من بيزا والفيلسوف ميشل سكوت ومما يؤثر عنه قوله في بعض منشوراتهِ الملوكية „ لا شيء ينفع الامة مثل تعميم العلم بين افرادها لانه يكفل للمملكة السلامة وللعامة النجاح ولذلك لم ندخر وسعاً من الأخذ بالاسباب التي تؤول الى انتشارهِ " وكان ينزع الى الاستقلال بالسلطتين الزمنية والروحية فخاصمه رؤساء الدين واتهموه بالسحر والزندقة والتعطيل وهاجوا عليه سخط شعبه واصدر البابا غريغوريوس التاسع منشوراً بشجبهِ وضيقوا عليه الخناق حتى اضطروه الى مسالمتهم بما منحهم من المزايا والحقوق وما تظاهر بهِ من مقاومة الهراتقة والمشاقين والتنكيل بهم . وهو الذي انشأ الندوة الطبية في نابلي وخصها بحقوق وامتيازات لم تكن لغيرها من قبل

فكانت سبباً لانحطاط مدرسة سلرنا عن منزلتها الاولى لانحراف الطلبة عنها ثم حدثت بينهما مساجلات افضت الى تضعضع اركانها وذلك في القرن السادس عشر ثم قُضي عليها بالالغاء بموجب حكم صدر في ٢٩ ايلول سنة ١٨١١ وبذلك انقضى عهد هذه المدرسة المشهورة التي يندبها التاريخ وترثيها الاعصار بعد ان كانت كأَنها شعلة نار توقدت بالمعارف العربية في ظلمات الجاهلية الاروبية الى ان ثارت عليها عواصف الحوادث فأطفأت نورها واخمدت سعيرها وقد حُملت جذواتها الى المدارس التي أُنشئت على الأَثر فأضاءَت مصابيحها في تلك الاقطار ولم تزل زاهرة تهدي الهدى للبصائر والنور للابصار

نبذة ثانية

في طرق انتشار علم الطب في اوربا وبداية نقض آراء القدماء

قد تقدم ان علم الطب وصل كغيره من علوم الحكمة المشرقية الى المغرب مأخوذاً عن العرب مترجماً عن اللغة العربية الى اللغة اللاتينية حتى مؤلفات حكماء اليونان فقد تُرجمت عن العربية الى اللاتينية وليس عن اليونانية الا القليل منها . وان

الصلة بين المشرق والمغرب في نشر العلوم ونفوذ اشعتها في ظلمات الجاهلية الاروبية انما كانت مدرسة سَلِرْنا كما كانت مدرسة جنديسابور واسطة لنشر الطب البقراطي وحكمة اليونان بين العرب . وان نقلة هذه العلوم الى اللغة اللاتينية تعلّم اكثرُهم في مدارس العرب وسافروا في البلاد العربية اي التي يتكلم اهلها باللغة العربيـــة منهم قسطنطين الافريقي وجيرارد الكريموني وروجر الكـبير مولف كتاب الجراحة مع ثلاثة آخرين من اساتذة مدرسة سَلِرنا . ويظهر ان الاطباء كانوا في ذلك الزمن يدرسون اللغة العربية كما ندرس نحن الآن لغةً أروبية لاتقان علم الطب . والفرق بيننا وبينهم اننا ندرس اللغات الاروبية لنصير اروبيين اي لننكر اصلنا وفصلنا وهم انما كانوا يدرسون اللغة العربية ليستفيدوا بنفائسها ويفيدوا وطنهم بتعميم مطالب العلم ونشرهِ وتحقيق مسائلهِ وايضاح ما غمض من مشاكله ولعلّ هذا الفرق حادثٌ من مبادئ التربية لاننا مضطرّون للتعلّم في مدارسهم حيث لا مدارس لنا .

وهم انما امتازوا بانشاء المدارس الكثيرة في اقطار اوربا منذ سطع نور العلم في افق الاندلس فكثرت المدارس في انحاء ايطاليا ثم في فرنسا وانكلترا وسائر جهات اوربا وساعد على امتدادها استعمال لغةٍ واحدةٍ في جميعها هي اللغة اللاتينية لغةُ الكنيسة الرومانية.

وكان لخدمة الدين اليد الطولى في إنشاء هذه المدارس وادارتها والسيطرة عليها حتى ان مدرسة مونبلياي وهي اقدم مدرسة اوربية خوّلت حقّ اعطآء الرتب المدرسية منذ سنة ١١٢٠ لم تكن تمنح لقب الاستاذ إلاّ للاكليروس وتلتها مدرسة باريس سنة ١٢٧٢ وقد تقدم ان مدرسة سلرنا خوّلت هذا الحق منذ سنة ١٢٣٢ مع انها اقدم جميع المدارس الاوربية من حيث النشأة

ولا يسعنا المقام ان نذكر هذه المدارس والذين أنشأوها ولكننا نلمُّ بذكر بعض الذين نبغوا فيها ممن امتازوا بالاراء الصائبة المؤيدة بالتجربة والمكتشفات التي تدرَّج بها علم الطب في مراتب الكمال واخصُّ هذه المكتشفات في علميْ التشريح والكيميآء وهما اساس جميع العلوم الطبية وذريعة العمران ومعدن السعادة وكلاهما حُفَّ بالمكاره لان التشريح كان محرَّماً والكيميآء عُدَّت من فنون السحَرة فلا بدع ان بقي علم الطب واقفاً عند الحد الذي انتهت اليه مدرسة الاسكندرية ولم يجرِ في حلبتهِ المتسابقون شوطاً بعيداً الا بعد ان نشطت العقول من عقال الوهم . ولقد اشار ابو القاسم الزهراوي في مولفهِ ,,القياس والتجربة" الى هذا الامر الخطير معترضاً على تحريم التشريح معرّضاً بالذين حالوا دون تحقيق المسائل العلمية بالترّهات وصدُّوا عن سبيل العلم بالخزعبلات وهذا الكتاب هو

اول كتاب مُثّلت فيهِ صورُ الآفات الجراحية واشكال الآلات التي اسْتُعملت لمعالجتها [1] فيحقُّ لنا ان نبدأ به تاريخ النهضة الطبية

وكان الاطباءُ يمارسون التشريح خفيةً عن اعين المراقبين من رجال الدين ثم أُذِن لهم بتشريح جثث المجرمين وسبقت مدرسة بولونيا ومدرسة باريس سواهما الى عرض هيكل عظام الانسان في قاعة التدريس . ويظهر ان اطباءَ الطليان تجرأوا وقبل غيرهم على ممارسة التشريح ومهّدوا الطريق لنقض مذهب بقراط وجالنيوس والذين جاءُوا بعدهما من اطباءِ العرب . واول من قام بهذه النهضة ويزال [2] المعروف بابي الجراحة وُلد سنة ١٥١٠ وكان حلاقاً ابن حلاقٍ ثم صار بالممارسة جراحاً ومشرحاً فاثبت وجود الفاصل بين بطيني القلب وان الدم لا يخترقهما كما زعم جالنيوس ولكنه يسير من الجهة اليسرى من القلب ويعود الى الجهة اليمنى . وهو اول من استعمل ربط الشرايين لقطع النزف الدموي . توفي سنة ١٥٩٠ وطبعت مؤلفاتهُ سنة ١٥٧٥ وهي مزينة بالرسوم التشريحية والجراحية . ثم عرف سِرْفت [3] الدورة الرئوية ولكنهُ بقي على مذهب القائلين بان الدم الوريدي الذي يرد من الكبد

---

1 La Revue Scientifique; Tome xxx II

2 Vésale 3 Michel Servet

تناط به التغذية وان الدم الشرياني يصدر عنه الروح الحيواني وتتوقف عليه الحرارة الغريزية. وقد اتهم ديوان التفتيش الديني ويزال بالمروق عن الدين وحكم عليه بالحريق حياً الا ان فيليب الثاني توسط في نجاته فألجيء الى الذهاب الى الارض المقدسة كفارةً عن جرمه وغرق قرب جزيرة كريت . واما سرفت فاحرق حياً بامر كلفينس سنة ١٥٣٥ وجاء بعدهما كولمبوس[١] وريلدو[٢] وأوستاخيوس[٣] وفلوبيوس[٤] وأرنشيو[٥] وكلٌّ منهم مذكورٌ في كتب التشريح بما اكتشف عليه من الحقائق التي لم يتوفق الى اكتشافها السلف . ونبغ سنة ١٥٩٨ فبريس[٦] الاكوابنديتي فاكتشف على صمامات الاوردة وكان مدرساً للتشريح في مدرسة بادو الكلية وتخرج عليه هرفي الشهير . اما سيزلبيني[٧] فجلُّ ما ذكره من جهة دورة الدم ان الاوردة تمتلئ دماً اذا رُبِط الذراع تحت مكان الربط لا فوقه وعلل بذلك عن رجوع الدم الى القلب . وُلد سنة ١٥١٦ وكان مدرساً للتشريح في مدرسة رومة

ومن مشاهير ذلك العصر غُوي من شولياك[٨] درس في مدرسة

---

1 Colombo 2 Realdo 3 Eustache 4 Fallope
5 Arantio 6 Fabrice d'Acquapendente 7 Césalpin
8 Guy de Chauliaque.

طولوز وتخرج في مدرسة مونبلياي ثم جاء الى بولونيا فاخذ التشريح عن نيقولا برتروشي وطالع مولفات اطباء العرب وكان طبيب البابا اينوسان السادس . الف في الجراحة كتاباً ضخماً سنة ١٣٦٣ طبع في البندقية سنة ١٣٩٠ وتُرجم الى جميع اللغات الاوربية .

وفي القرن الخامس عشر اخذت غيوم الغباوة والجهل تنقشع عن آفاق القارة الاوربية فتلوح من خلالها اشعة المعارف وتبدو تباشير صبح الاصلاح . وذلك ان العرب اصطنعوا ورق الكتابة من الحرير ثم من القطن فاخذ الاسبان والطليان عنهم هذه الصناعة فكانت فألاً لاستنباط آلة الطباعة وتعميم نشر الكتب . واكتشفوا على منافع الحك في الملاحة وكان الملاَّحون من قبل يهتدون بمواقع النجوم فتهيَّأ لخريستوف كولمبوس ذلك السفر الطويل الشاقّ الذي انتهى باكتشاف العالم الجديد . وأوجدوا البارود واستعملوهُ في حروبهم مع الاسبان لرمي القذائف فتعلمهُ هؤُلاء منهم واتقنوا صناعته وحاربوهم بسلاحهم[1] فكان ذلك بداية انقلاب الفنون الحربية واستنباط الآلات الجهنمية . واجتاح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وغلب الروم عليها فلجأ كثيرٌ من علمائهم الى ايطاليا

1 V. l'Histoire des Arabes par Sédillot

وتفشّى الداء الزهري في مدينة نابلي وجنوبي اوربا فاعوز الحال الى الاطبآء والجراحين. وكأنَّ هذه الاسباب قد تهيأت لتعمل على خلع نير العبودية والاستبداد فهبَّ المصلحون في طلب الحرية وتجرأ اهل القرن السادس عشر على بث آرآئهم وافكارهم وظهر حينئذ هرفي الانكليزي فابدع بكشف دورة الدم وكان ذلك من اقوى الاسباب التي تداعى بها بنيان الطب القديم

وُلد وليم هرفي[1] سنة ١٥٧٨ ودرس علوم الطب في مدرسة كمبردج الجامعة ثم تخرج في مدرسة بادو مدة اربع سنين وكانت هذه المدرسة معدودةً حينئذ في اول درجات المدارس العليا ثم عيّن طبيباً في بيمارستان القديس برثلماوس وكان يلقي خطباً في التشريح والجراحة ثم عينهُ الملك جاك الاول طبيباً لهُ واشتهر بممارستهِ التشريح على الحيوانات الحية ونشر موءلفهُ في حركات القلب والدم في الحيوانات سنة ١٦١٠ قال,, اذا شُقَّ الصدر عن القلب ورُفع الشغاف حالاً يرى القلب متحركاً حركاتٍ متواليةً بين كل حركتين فترة سكون فلهُ اذًا وقتٌ للعمل ووقتٌ للراحة،، وكانوا يظنون ان علة نبضان القلب مصادمة طرفهِ الجدارَ الباطن للصدر عند الانبساط

1 W. Harvey

فأثبت ان الحقيقة على خلاف ما زعموا لان القلب انما يصدم جدار الصدر الباطن عند الانقباض الذي يندفع به الدم من البُطينين .فالدم المندفع من البُطَين الايسر يجري في الاورطى (الابهر) والمندفع من البطين الايمن يجري في الشريان الرئوي. والاورطى يحمل الدم النقيَّ بالشرايين التي تنشأ منه الى جميع انحاء الجسد لتتم الاعمال الحيوية ثم يعود بالاوردة التي تبتدئ بان تكون دقيقةً فتغلظ بما يتصل بها من الفروع الواردة بعضها الى بعض حتى تنتهي من جهة الراس والعنق بالاجوف النازل ومن جهة الاطراف والصدر والاحشاء بالاجوف الصاعد وكلاهما يصبان في الأُذينة اليمنى الدمَ الوريديَّ القاتم اللون وهي تفرّغهُ في البطين الايمن حيث ينشأ الشريان الرئويُّ فيحمله الى الرئتين وبعد اتمام دورته فيهما يعود الى أذينة القلب اليسرى محمولاً بالاوردة الرئوية فتُفرّغهُ في البطين الايسر حيث ابتدأت الدورة ولا يزال دائرًا على هذا المنوال مادام الحيوان حياً

هذهِ هي دورة الدم التي أبدع بيانها هرسيفي محمولاً الى اكتشافها بما تحرّاهُ من التجارب على الحيوانات الحية والتأمل في كمية الدم الغزيرة النازفة من الشرايين لدى قطعها وفي النسبة بين كميتهِ وبين تجاويف القلب والاوعية وفي عمل

الصمامات وسرعة حركة الدم الى غير ذلك مما اوضحه في مؤلفه المشار اليه اثباتًا لهذه الحقيقة التي عارضهُ بها معاصروه وانكروها عليهِ لانهُ خالف اراء الاقدمين كأنهُ جاء امرًا فريا . على انهُ قد نهج بذلك طريقًا سويًا أدّى الى كشفِ كثير من الحقائق بعضها على اثر بعض فجاءت كلها مؤيدةً لاكتشافه البديع . منها اكتشاف تفمم الاوعية الدموية والدورة في الاوعية الشعرية اللذين اوضحهما ملبيجي[1] سنة ١٦٦١ ومنها اكتشاف الاوعية اللمفاوية التي ابدع ببيانها أزلي[2] واهمّ هذه الاكتشافات وابدعها واشدّها طائلة على نقض الاراء القديمة واثبات منفعة الدم ودورتهِ وبناء علم الطب الحديث على اسس الحقيقة انما هو اكتشاف لافوازياي مصدر الحرارة الحيوانية وطريقة تطهير الدم بواسطة التنفس على ما يُعلَم مما يأتي

نبذة ثالثة

في نقض المذاهب القديمة من حيث الكيمياء

لامراء في ان مصر سبقت الى الحضارة والمدنية جميع الامصار على ما يُعلَم من الاثار المكتشفة عليها وقد ثبت انها سبقت غيرها الى احراز العلوم وتدوينها بالخط القبطي القديم المعروف

1 Malpighi 2 Aselli

بالهيروغليف ليبقى اثراً خالدًا يدلُّ في جميع الاحقاب والعصور على عظمتها ومدنيتها ويبعث في الخلف روح الغيرة والنشاط بتذكار ما كان عليه السلف · ومن الثابت ان مشاهير فلاسفة اليونان جآؤُا مصر وأخذوا عن المصريين منهم فيثاغورس وهيرودوتوس وافلاطون وارسطو. ولما خبا مصباح العلوم في مدارس اليونان ازهر في مدرسة الاسكندرية فنبغ فيها ارخيمدس بالهندسة وبطليموس في علم الهيئة وجمبليكس [1] وبلوتنس [2] في الفلسفة وهيروفيلوس وايرازستراتوس وجالينوس في التشريح وسائر العلوم الطبية. اما علم الكيمياء فقد كان الكهنة المصريون ابناء بجدته وكانوا يحلّونهُ من دينهم في المحلّ الارفع ويبيحون دمآءَ من باح بسرهِ ولذلك لم يدوّنوهُ الا بالرموز والالغاز والأشكال الغريبة التي نقلها اليونان عنهم وتحدَّوهم بها من ذلك تسمية المعادن السبعة المتطرقة باسمآءِ الكواكب السبعة السيارة ووضعهم لكل منها علامة خصوصية تدلُّ عليها بالخط فاذا ذكروا الرصاص قالوا زُحل وكتبوهُ بسمتهِ واذا ارادوا الزئبق اشاروا الى المريخ ورمزوا الى الذهب بالشمس والى النحاس بالزهرة والى القصدير بالمشتري والى الفضة بالقمر · ويظهر من كتب الخط اليونانية القديمة الموجودة في المكاتب العمومية

1 Jamblique 2 Plotin

في ممالك اوربا ومقابلتها بادراج البردي المصرية ان اليونان لم يزيدوا شيئاً في هذا العلم على ما اخذوه عن المصريين . واجمعوا على ان اساتذة الكيمياء العظام الذين سموهم بعلمي المسكونة أخذوا عن المصريين وهم هرمس وديمقريطس وذوسيم . اما هرمس فنعتوه بالمثلث العظمة [1] لانهم زعموا انه آله يقتاد الانفس الى الالهتين تهوت وتوت وقال آخرون انه من ملوكهم العظام استنبط العلوم واودع اسرارها الكتب الرمزية واليه ينسب علم الكيمياء فيقال الصناعة الهرمسية والصناعة المقدسة وهو عند العرب ادريس او اخنوخ وعليه قول ابن هانيء في شذور الذهب

دعني من صبغ النحاس بزرنيخ ومن عقد محلول الرصاص بمريخ

الى ان قال

ومن فك ارماز الذين تحالفوا على كتم هذا السر من عهد أخنوخ

واما ديمقريطس فهو من مشاهير فلاسفة اليونان كان في عهد افلاطون وجاء مصر وبقي خمس سنين يتلقى العلوم فيها وسافر في جميع البلدان وكان يسمى بالحكمة . واما ذوسيم فكان في القرن الثالث في زمن اكليمنضوس الاسكندري وترتوليانوس وهو الذي نقل الرموز الكيماوية الى لغة اليونان في ٢٨ رسالة هي اقدم ما

1 Trimageste : V. Hermés ; Qrande Encyclopédie

ألف في هذا الفن وذكرهُ ابن هانيء الاندلسي . قال مشيرًا الى الكيمياء .

كم كنى لا آثمًا في ما كنى   هرمسٌ عنها ولا ذا جنفِ
واطالَ القولَ فيها ذوسيمٌ   وهو قد دوَّنها في الصحفِ
واجادَ النظمَ فيها خالدٌ   لرجالٍ من خيار السلفِ

وقال برثلوت كيماوي[1] هذا العصر الشهير ,, من كتب الخط القديمة الموجودة في المكتبة الوطنية (باريس) كتاب في صناعة الزجاج والاحجار الكريمة ينسب الى سلماناس salmanas العربي من رجال القرن الثامن " ولعلهُ مسلمة المجريطي من حكماء الاندلس كان بعد جابر . قال ابن خلدون كتب مسلمة كتابهُ الذي سماهُ رتبة الحكيم في الكيميا وجعلهُ قرينًا لكتابه الأخر في السحر والطلسمات الذي سماهُ غاية الحكيم وزعم ان هاتين الصناعتين هما نتيجتان للحكمة وثمرتان للفنون ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمرة العلم والحكمة اجمع وكلامهُ في ذلك الكتاب وكلامهم اجمع في تآليفهم هي الغاز يتعذر فهمها . اه اجابر فمختلفٌ فيه ذكر صاحب كتاب الفهرست انه ابو موسى جابر بن حيان الطوسي بالنسبة الى طوس مدينة

1 Les manuscrits alchimiques grecs, par M. Berthelot—Rsvue scientifique; t. xxxv

في خراسان كان في القرن الثامن واقام في الكوفة ولذلك يقال له الكوفي . وقال آخرون أنه وُلد في حران وكان من الصابئة وزعم يوحنا الافريقي انه كان رومياً واسلم . ألف في الكيمآء ٧٠ رسالة على ما ذكر ابن خلدون وفي كتاب الفهرست ان المصنفات المنسوبة اليه تبلغ ٥٠٠ واكثرها لتلامذته . قال ديدرو[1] „ ان جابرا يعدّ ابا للكيمآء لانه اول من اوضح مبادئ الصناعة على طريقة ثابتة وجمع اصولها في كتاب بل هو اول من دقق في كيفية اجرآء العمليات الكيماوية الاساسية وبه تبتدئ الفلسفة الكيماوية" وقوله هذا موافق لقول ابن خلدون في مقدمة تاريخه وهو „ وامام المدوّنين فيها جابر بن حيان حتى أنهم يخصونها به فيسمونها علم جابر" وقالوا ان جابراً كان تلميذاً لجعفر الصادق وقال آخرون انه كان تلميذ خالد بن يزيد ابن معاوية بن ابي سفيان . قال ابن خلدون „ وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها الى خالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين ان خالداً من الجيل العربي والبداوة اليه اقربُ فهو بعيدٌ عن العلوم والصنائع

1 Diderot; Introduction à la Chimie, V. la Revue Scientifique ; tome XXXI

بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وامزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تترجم بعد . اللهمَّ ان يكون خالد بن يزيد آخر من اهل المدارك الصناعية تشبه باسمهِ فممكن" وقد مرَّ في الابيات المنسوبة الى ابن هانيء ذكر خالد بعد ذكر هرمس وذوسيم وفي القصيدة نفسها يشير الى جعفر الصادق بقولهِ

حكمةٌ اورثناها جابرٌ عن امامٍ صادق القولِ وفي
لوصيٍّ طاب من تربتهِ فهو كالمسك تراب النجفِ[1]

وقال ابن خلدون "ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من ابدع ما يجيء في الشعرِ ملغوزةٌ كلها لغز الاحاجيّ والمعاياة فلا تكاد تُفهم" وهذا الوصف يصدق على الكتاب الذي نقلت عنه الابيات المذكورة آنفًا وهو منسوب في النسخة التي بيدي الى ابن هانيء الاندلسي وعنوانه "شذور الذهب" يشتمل كلُّ حرف على قصيدةٍ او اثنتين من غرر القصائد اكثرها من الثلاثين الى الخمسين بيتًا يرتاح المطالع الى استيعابها وينشرح صدر اللبيب بها لعذوبة لفظها وسهولة انسجامها

١ مكان لا يعلوه الماء او هي ارض مستديرة مشرفة على ما حولها

مع ما فيها من تعمية المقاصد والمعاياة والرموز . ولا بأس ان نورد منها قصيدة يستدل بها على سائرها ليتبصر بها شعراء هذا العصر ويعتبر بها الكتبة الادباء . وما اكتم عن القارىء اللبيب انني قد احترت في اختيار القصيدة التي انقلها لأن هذه القصائد سلسلة مفرغة من معدن واحد لا يدرى اين طرفاها حتى وقع نظري في قافية الدال على قوله

لنفسك فانظر أيهذا المفندي ... فلستُ وان حاولتَ نصحاً بمرشدي
فما الخيرُ في مرءٍ يروحُ معنفاً ... لطالبِ علمِ الكيمياء ويغتدي
وفي كلّ شيءٍ للصناعة آيةٌ ... متى استشهدتها فكرةُ المرءِ تشهدِ
ولكنّهُ يخفى على الغِرِّ[1] سرُّها ... ويبدو لذي الرأي المصيبِ المسرّدِ[2]
واني وان خالفتُ صحبي لضاربٌ ... لها مثلاً يُهدى به كلُّ مهتدي
رأيتُ من التأثير للشمس حجةً ... لصنعتنا ان يجحد الجسُّ تجحدِ
فانَّ لها في أوجها إن تحلّهُ ... سبيلاً على الأنوال[3] والكلاِ الندي
وتجعلُ ما قد كان لبدهُ الندي ... هباءً كمنخولٍ من الكحل اثمدِ
وتنزلُ بالميزانِ او برقيبهِ ... فتزجي سحاباً من بخارٍ مصعدِ
بكلّ عصوفٍ يزدهي كلُّ مبرقٍ ... وجونٍ[4] كأصرام[5] الحنادس مرعدِ

١ الشاب لا تجربة له ٢ الثاقب ٣ جمع نول وهو الوادى السائل ٤ اللون يضرب الى السواد ٥ الجماعات

فينحلُّ ذاكَ البرقُ ماءً للطفهِ ... يمايله من دمعها المتبددِ
ويخبر عن هذين كلُّ عجيبةٍ ... من الصبغ لم يعلق بها اثرُ اليدِ
فمن روضةٍ غناءَ زُخرف وشيها ... ومن جدولٍ يسعى به سعي اسودِ [1]
ومن أقحوانٍ كالثغور مؤشرٍ ... ومن زَهرٍ مثل الخدودِ موردِ
فصبح وجهُ الارض من زَهراتها ... ونوّارها في عبقريّ مُسجدِ
وان تركت بالجدي ألقت لبيسه ... على الماء من برد الهواء فيجمدِ
فذاك هو التكليس ان كنت ترعوي ... وذاك هو التعفير [2] لو كنت تهتدي
وذاك هو التقطير للزئبق الذي ... متى حُلَّ بالدهن المقطَّر يعقدِ
وذاك هو التصعيد تشويه قبلهُ ... فانك ان تشويه من قبلُ يُصعدِ
وللخالط إحراقان يظهر عنهما ... سوادٌ وتبييضٌ فبيِّضْ وسوِّدِ
وعقدان عن حلّين لا بدَّ منهما ... فحُلّه وأعقدْ ثم حلّهُ واعقدِ
وسوِّدهُ تسويدين تحفظ بسرِّه ... وبيِّضه تبييضين تُغنَ وتسعدِ
فيجمدُ بعد الحلّ روحاً وجسماً ... متى ينبسطْ في جسم دانٍ يخلّدِ
وتحليلُه من بعد سهلٌ لمن شدا ... قليلاً من التدبير فاصبغهُ تحمدِ
وما صبغهُ من غيره بل لغيرهِ ... به منهُ فاستخرجهُ بالغير واجهد

---

١ العظيمه من الحيات ٢ التجفيف من عفر اللحم اى جففه على الرمل فى الشمس

ولا تطلبن في الرمز وزناً فانهُ قريبٌ وان تطلبهُ في الرمز يبعدِ
ولا تصغين فيه الى لغز لاغزٍ فذلك من تضليلهم عن تعمدِ
فلو رمتَ في الاجزاء فضل زيادةٍ على الوزن لم يقبلْ ولم يتزيدِ
فان شئتَ ان تحظى بحكمة هرمسٍ ومَن بعده من أوحدٍ بعد اوحدِ
فدونك هذا القاسيَ الخالد الذي يُدبرُ بالدهن اللطيف المقيَّدِ
هو العالمُ المعلومُ في كل بلدةٍ هو الزئبق المشهودُ في كل مشهدِ
هما الماء والنارُ اللذان اذا اقتفى فتىً بهما اثرَ الطبيعةِ يُرشدِ
اذا جُمعا عَوداً وبدءًا وبيّضا اضاءا كضوء الكوكبِ المتوقدِ
فهذا هو الاكسير والحجرُ الذي تحجرَ عن نهرَيْ لجين وعسجدِ
وهذا هو الكنزُ الذي من يفزْ بهِ يفزْ بغنى ان ينفدِ البحر ينفدِ
الى علمهِ فلتَصبُ ان كنتَ صابياً ومل عنه لا عن حادث الدهر في غدِ
ستبدي لكَ الايامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالاخبارِ من لم تزوّدِ

ومما هو حريٌّ بالاعتبار ان كهنة المصريين اتخذوا علم الكيمياء وسيلةً لكتمان سرّ الديانة فموّهوا به على السذّج المغفلين كما قال شيشرون وأريجانوس. اما اليونان فهاموا في طلب الحجر الكريم والاكسير الذي تحول بهِ المعادن الخسيسة الى المعادن النفيسة واقتفى اثرهم العرب طمعاً في تحصيل الغنى والسعادة ثمَّ احسَّ الاوربيون بمنافع المدنية بعد الحروب الصليبية وتُرجمت

الكتب العربية الى لغاتهم وقد وقف بعضهم على مصنفات جابر والرازي وابن سينا وغيرهم فجدّ بهم الحرص على تجربة ما ذكر فيها . واول من اشتغل بذلك ألبر الكبير وروجر باكون وكان كلاهما راهبين فانكشفت لهما اسرارٌ من العلم وقد اوضح الاخير منهما كثيرًا من الحقائق في علم الهيئة والحِيَل والبصريات والكيمياء والطب .

وجاء بعدهما ارنلدولنوف[1] احد اساتذة منبلياي . وُلد في بداية القرن الثالث عشر وكان طبيب جاك الثاني ملك اراغوان وتعلم اللغة العربية في صقلية وهو اول من حكى عن التقطير وروح الخمر نقلاً عن العرب وكانت التجارة بروح النبيذ والعرقي رائجة في صقلية وكالبريا ثم تحوّلت الى البندقية . وذكر علماء الافرنج عدّةً من الكيمياويين في ذلك العصر كان دأبهم طلب الحجر الكريم او حجر الفلاسفة حتى جاء باراشلس السويسري سنة ١٤٩٣ وكان يُسمى برئيس الاطباء وهو اول من اعترض على مذاهب القدماء وندّد باراء جالينوس وحرق مصنفاته مع مصنفات ابن سينا بنار الكبريت والزئبق في مدرسة بال التي نُدِب للتدريس فيها فوقعت المشاحنة بينهُ وبين علماء عصرهِ . ونبغ بعدهُ جان هلمونت[2] من بروكسل

1 Arnauld Villeneuve 2 Jean—Baptiste van Helmont

وُلد سنة ١٥٧٧ ودرس الطب البقراطي والرياضيات وفلسفة ارسطو وامتاز بعلم الكيمياء . ولما أصيب بالجرب جرّب العلاجات التي كانوا يستطبون بها لهذه العلة فلم تنجع فاشار عليه بعضهم باستعمال الكبريت على ما وصفهُ باراشلس فشُفي فحمله ذلك على متابعة ذلك الكيماوي ومقاومة مذهب الاخلاط وكان ذلك من اقوى الاسباب لحدوث الانقلاب في علم الطب وتقرير درس علم الكيمياء في مدارسهم من حيث هو علم بقطع النظر عن حجر الفلاسفة . ونشأ حينئذٍ القول بان بدن الحيوان موءلفٌ من عناصر كيماوية وان الظواهر الحيوية ليست الا نتيجة التفاعل الكيماوي الذي يؤدّي الخلل فيه الى المرض فثبت كون الاختمار حادثةً كيماويةً وان الحميات تحدث عن اختمار العفونات في البدن فالحمى اذًا حادثةٌ كيماوية . وبقي هذا المذهب شائعًا حتى حلَّ محلّهُ مذهب الآليين المنسوب الى بورللي [1] ومآلهُ ان الاعمال الحيوية انما تصدر عن عمل الاعضاء التي هي بمثابة آلات حية فكل خلل في عمل الاعضاء يظهر بالاعراض التي هي دلائل المرض وجرى على هذا المذهب الشهير بورهافن [2] مدرس التشريح والنبات والكيمياء في مدرسة ليد المدينة التي وُلد

1 Borelli 2 Boerhaave

فيها سنة ١٦٦٨ . ومما يدلُّ على رفعة شأنهِ انهُ اضطر انترك التدريس مدةً وهو مريض فلما ابلَّ عمَّ السرورُ اهلَ المدينة كلهم فشاركوا تلامذتهُ في مظاهر الفرح ونوَّروا بيوتهم مساءَ اليوم الذي عاد فيه الى شغلهِ المألوف فكانت المدينة كانها شعلةٌ من نار . ومن تلامذته النابغين هلر[1] الالماني . وُلد في برن سويسرا سنة ١٧٠٨ وتوفي سنة ١٧٧٧ وكان مدرساً للتشريح والجراحة والنبات في مدرسة غوتنج الكلية ولهُ في علم منافع الاعضاءَ اكتشافات مهمة منها مبدأ التهيج في الاعصاب والتقلص في العضَل . وكان واسع الاطلاع كثير التدقيق متبحرًا في كتب المتقدمين لم يبخس الزهراوي حقهُ من الثناء على مؤلفاتهِ . ونبغ في ذلك العصر آخرون لم نتصدَّ لذكرهم اكتفاءً بما تقدم

وفي اواخر القرن الثامن عشر كثر المشتغلون في علم الكيمياءَ وسائر العلوم الطبية وغير الطبية وتوالت المكتشفات وتمهدت السبل لتمحيص الحقائق وبرح الخفاءُ عن كثير من اسرار الطبيعة . وقد ذكرنا ان بريستلي وشيلي كشفا اتفاقاً الغاز المسمى الآن بالاكسجن وان بريستلي كشف ايضاً الازوت وغيرهُ من الغازات المعروفة الآن وان كافندش كشف عن غاز الهيدروجن فاخذت عقد الكيمياءَ

1 Haller

تنخل واحدة فواحدة حتى اتى على آخرها امام هذا العلم على الحقيقة لافوازياي[1] الشهير المقضي عليه بالاعدام في الثورة الفرنسوية سنة ١٧٩٤ . ولد في سنة ١٧٤٣ وعين كيماويًا مساعدًا في جمعية العلوم منذ كان عمره خمسًا وعشرين سنة وحصل باجتهاده ثروة طائلة وجاهًا وجيهًا وكان معمله مجمع العلماء حتى أمه مشاهير العصر من اقطار العالم مثل بريستلي الكيماوي ووط[2] مستنبط الآلة البخارية والفيلسوفان فونتانا[3] وفرنكلن[4] والاقتصادي ينغ[5] وغيرهم ولكن الدهر اخنى عليه فانزله من شاهق مجده لما قضي عليه بالاعدام فلم تشفع به اكتشافاته وفضله وماله وجاهه

كأن الردى عادٍ على كل ماجدٍ اذا لم يعوّذ مجده بعيوبِ

وكان عمر لافوازاي تسعًا وعشرين سنة اذ شرع باجراء تجاربه التي اكتشف بها تلك الحقائق الساطعة وهو لم يعثر بها صدفة واتفاقًا ولكنه تحرّاها عن فكرةٍ وقادةٍ وبصيرةٍ نيّرة فرسم الخطة التي جرى عليها في محاولته اصلاح علم الكيمياء وقد تمّ له ذلك حيث حداه البحث الى معرفة تكليس المعادن وتركيب الهواء ومنفعة الاكسجن في الاشتعال وتكوين الحوامض والتنفس

1 Lavoisier 2 Watt ٣ Fontana 4 Franclin
5 Young

وماهية الغازات عموماً ومصدر الحرارة وطريقة تولدها في الحيوانات . وآخر آياته البيّنات حلّ الماءِ وعقده اي تحليله الى عنصريه الاكسجن والهيدروجن وتركيبه منهما فكان ذلك الضربة القاضية على مذهب القدماءِ

وكان الهواءُ الجويّ معتبراً حتى منتصف القرن الثامن عشر عنصراً بسيطاً غير قابل للحل فاثبت لافوازياي أنهُ مركب بتجربة نراها الآن بسيطة وهي تكليس القصدير مع الهواءِ في اناءٍ محكم السد فظهر له ان وزن الاناءِ بما اشتمل عليهِ لم يزد ولم ينقص خلافاً لزعم من قال انهُ يزيد لتعلق مادة النار فيهِ . على أن القصدير المحوَّل الى مادة كلسية قد ازداد وزنهُ في الحقيقة لانهُ اخذ من الهواءِ المشتمل عليهِ الاناءُ وقد ثبت لهُ ان نقص الهواءِ كان معادلاً لزيادة المعدن فالشيءُ الذي خسرهُ الهواءُ هو الاكسجن الذي تركب مع القصدير فكوَّن أكسيد القصدير

ويدّعي الانكليز الفضل في اكتشاف الاكسجن لوطنيهم بريستلي وهو في الحقيقة قد سبق الى استحضارهِ ولكن على غير قصد لانه بينما كان يزاول بعض التجارب وجد ان الراسب الاحمر يفلت منه غاز اذا وُضع في اناءٍ مسدود ووُجهت اليه اشعة الشمس مجموعةً بِبلورةٍ . وقد تبين ان لهيب المصباح يزداد

بهذا الغاز ضياءً وان التنفس يزداد بهِ سرعةً فعمد الى استعماله علاجاً في بعض الامراض. وهو مصيب بذلك ولكنهُ وَهِم في تعليلهِ حيث ارتأى ان الهوآء مادة بسيطة لها كيفيتان متباينتان يزداد الاشتعال والتنفس باحداهما وينقصان بالاخرى. وبيان ذلك ان تؤخذ كمية من الزئبق وتوضع في إنبيقٍ مسدودٍ وتحمى فيتحد بعض الهوآء ضمن الانبيق بالزئبق ويبقى البعض الآخر غير صالح للتنفس والاشتعال فلذلك سمى الهواء المتحد بالمعدن بالهوآء المحرق. اما لافوازياي فاثبت ان الهوآء ينحلُّ الى عنصرين تقوم باحداهما الحياة فسمّى احدهما بالهوآء الحيوي في مقابلة العنصر الاخر الذي سماهُ بالازوت أي الغير الحيوي. قال "الهوآء مزيجٌ من غازين مختلفين احدهما الهوآء الحيوي (اي الاكسجن) والثاني الازوت وليس للاحتراق معنى في تركيبهِ"

وقد نجح لافوازيايُ بتركيب الهوآء بان مزج الازوت مع الغاز الذي امتصهُ الزئبق لدى تكليسهِ. ثمَّ تبين ان الغاز الذي يتولد عند احمآء الزئبق والفحم معاً انما هو الحامض الفحمي ووضح لهُ ان الكبريت والفصفور يجريان على هذا السنن فسمى الغاز المذكور بالاكسجن اي مولد الحوامض. وبعد ان عرف حقيقة التأكسد وكيفية توليد الحوامض وما هية الهوآء

تهيأ لهُ بطريق القياس ان يعرف حدوث مثل ذلك في بدن الحيوان فأثبت ان التنفس يشبهُ عمل الاحتراق في خارج البدن وان الحرارة الحيوانية تتولد من اتحاد الاكسجن بالمواد المحترقة وان الاكسجن يَرِدُ بالهوآء المستنشق وينفذ من الخلايا الرئوية الى الدم فيتلاقى مع المواد المحترقة وحينئذ يتولد الحامض الكربوني (الفحمي) الذي يطرح من الرئتين بالتنفس فيتنقى الدم منهُ ويتطهر. ولاثبات ذلك وضع حيوانًا في أناء ضمنهُ آلةٌ تقاس بها درجة الحرارة ووزن الاكسجن الذي يمتصهُ الحيوان والحامض الكربونيك الذي يبرزهُ والحرارة التي تظهر فيهِ فانجلت الحقيقة على نحو ما دار في خلدهِ كما تقرّر آنفًا. ثم اكتشف على تركيب المآء من الاكسجن والهيدروجن فتقوّض بنآء المذاهب القديمة من اساسهِ ودخل علم منافع الاعضآء في طور جديد من التحقيق والتدقيق وبعد ذلك وضع مبادئ التسمية الجديدة للاجسام الكيماوية وألف كتابهُ الذي انتشر في جميع انحاء العالم فصار قاعدة للتعليم ومدخلاً لمعرفة اصول هذا الفن

نبذة رابعة

في علم الطب في القرن التاسع عشر

يقف الفكر حائرًا في حضارة الاورويين لهذا العهد وجريهم

شوطاً بعيداً في حلبة المدنيــة فكأنهم هبّوا من غفلتهم هبوب الرياح وطاروا على اجنحة النجاح. أجلْ فهم الذين ذللوا قوى الطبيعة واستخدموها في قضاء اغراضهم فلم تبدِ امتناعاً واستنبطوا من الكهرباء قوّة تجري بهم كالبرق الى كل غاية سراعاً وسلطوا النار على الماء فكان البخار لامرهم مطواعاً وطرّقوا الارض بقضب الحديد فجرت عليها قُطُرهم تباعاً ولهم في كل يوم اختراع عجيب وابتداعٌ غريب . واذا عرف السبب زال العجب . أليس كلُّ ما نراهُ من ظواهر عظمتهم وبدائع صنعتهم وغرائب مكتشفاتهم ومخترعاتهم اثرَ العلم الحقيقي الذي يستطيع كلُّ انسان ان يحقق مسائلهُ بالحسّ والامتحان لا الوهمي الذي يُضطرُّ الى الانقياد اليهِ بالتسليم والاذعان [1] ولا سيما علم الطب الذي ذكرنا في ما سبق تدرجه في مراتب الكمال الى ان وصلنا الى القرن التاسع عشر وبيّنا طريقة انتشارهِ في اقطار أوروبا منقولاً عن العرب حتى دُرِست معالم الطب القديم ولم نتصدَّ للكلام على العلم الطبيعي وهو من اقسام العلم الحقيقي ولم نذكر فضل العرب في تحقيق مسائلهِ الا الماماً لئلا نخرج عن صدد البحث الذي

---

1 V. La Philosophie Positive, par Auguste Comte

آثرناهُ فبقي علينا ان نتمَّ الكلام في هذا الموضوع وقد انتهينا الى بداية القرن الماضي وهو القرن الذي برز فيهِ علم الطب بثوبهِ القشيب بين قومٍ عرفوهُ فأجلّوهُ واحلّوهُ في سويداءِ القلوب

ومعلوم ان جميع هذهِ العظائم التي يقال ان ذوي المدارك السامية استنبطوها او ابتدعوها او اخترعوها او اكتشفوها لا تتعدَّى حدود الطبيعة ولا تخرج عن السنن الذي يجري عليهِ نظامها وانما بقيت محجوبة عن الافهام لان ادراكها جملةً من المحال . وقد رأينا كثيرًا من المسائل المشكلة لم تنحلَّ عقدها الا بالتدريج على تمادي الزمان فالحرارة الحيوانية مثلاً بقيت من الاسرار الطبيعية المحجوبة عن الافهام الوفًا من السنين حتى جآء لافوزياي في نهاية القرن الثامن عشر فاوضح حقيقتها بتجاربهِ البديعة بعد ان تهيأ السبيل لهُ بتجارب سلفائهِ ومباحثهم في الكيمياءِ والتشريح

وقد اشرنا في ما سبق الى تدرج علم التشريح في مراتب الارتقاءِ حتى بداية القرن التاسع عشر فيجمل بنا الآن ان نبين كيف وصل في القرن المذكور الى ذروة الكمال وان نذكر على سبيل الاستقراءِ كيفية نشوءِ الفروع الجديدة من هذا الاصل وما أثمرت تلك الافانين من الفوائد والمنافع

ولا خلاف في ان نابغة هذا القرن كان فتىً عُرِف باسم

مصلح هذا العلم. ألا وهو بيشات[1] الشهير وُلد سنة ١٧٧١ وتوفي في عنفوان الشباب لكثرة ما كدَّ نفسهُ واجتهد غير متجاوز الحادية والثلاثين من عمره وكان ابوهُ طبيباً فأخذ عنـهُ وتدرَّب على الممارسة بتشريح المرة وتلقي العلوم في مدرسة ليون الكلية ثم جاء الى باريس سنة ١٧٩٣ ولازم ديزلت[2] مؤسس مدرسة الجراحة العملية فعهدت اليه ادارة مجلة الجراحة على انه ترك الاشتغال بهذا الفن ليتفرغ لدرس منافع الاعضاء فانفسح لهُ مجال التحقيق وعكف على التأليف فنشر رسالة في الاغشية وتلاها بنشر رسائله في الحياة والموت وفي سنة ١٧٩٩ طبع مؤلفهُ في التشريح العام وعين حينئذٍ طبيباً لمارستان باريس المعروف بأوتل ديو hotel dieu فاعمل فكرتهُ في المقابلة بين الاعضاء الصحيحة والمريضة لمعرفة خلل منفعة الاعضاء من جراء خلل الاعضاء نفسها وكان يشرّح جثث المتوفين بالامراض المختلفة ليعرف التغيرات المرضية فتسنَّى لهُ ان يشرّح في مدة ستة اشهر اكثر من ستماية جثة ولم يحوم احدٌ قبلهُ على هذا الامر فهو اذاً واضع علم التشريح المرضي وقد حاول اصلاح طرق معالجة الامراض على هذا المبدأ ففاجأته المنية

1 Bichat 2 Désault

واذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الاجسامُ

هذا هو بيشات الذي ابدع بوصف الاعضاء المؤلف منها جسد الانسان ورتّب الانسجة التي تتكوّن منها الاعضاء انواعاً يمتاز كلٌّ منها بخصائص تُعرف بها ماهية العمل الذي وُجدت لاجله وقسم هذه الانسجة الى ما تقوم به الحياة النباتية اي التي يشترك بها الحيوان والنبات كوظائف التغذية والتوالد والى ما تقوم به الحياة النسبية اي التي يظهر بها تعلق الحيوان بما حواليه وتعرف بوظائف المخالطة وهي خاصة بالحيوان واثبت ان الاعضاء الرئيسة هي القلب والدماغ والرئتان وذهب الى ان الحياة نتيجة تكافل الانسجة بابداء ما قدرَ على كل منها من العمل والمنفعة قال „ الحياة نتيجة عمل الاعضاء الذي تقاوم به الموت " او هي قوة غير معروفة الماهية لاتزال تقاوم العوامل الخارجية التي تفضي الى اضمحلالها وان الامراض انما تحدث عن خلل في الخصائص الحيوية فهي اذاً تختلف باختلاف الانسجة الواقع عليها الخلل وان غاية العلاج اصلاح هذا الخلل بما يحفظ الموازنة بين الانسجة

ومن العجيب ان بيشات على سمو مداركه وسعة اطلاعه لم يحفل بالمجهر (المكروسكوب) ولم يستعمله في تحقيق بناء

الانسجة وكشف اسرار الكائنات المتناهية في الصغر مع ان لُوِنْهوك[1] استنبط هذه الآلة البديعة منذ سنة ١٦٨٣ وكشف بها كريات الدم (التي اعتبرها ملبيجي كريات دهنية) واتمَّ اكتشافهُ في تبيين الاوعية الشعرية وكشف ايضاً عن النقاعيات وبين اشكال الجسيمات الحية المختلفة التي تكون في الفم في حالة الصحة الى غير ذلك مما اهتدى به المتاخرون واوضحوا به من الحقائق ما كان مستورًا فصار درس الاجسام المجهرية فرعًا من اهم فروع العلم ومبحثًا من المباحث التي اتسع بها نطاق علم الطب وتحققت مسائلهُ الغامضة ولولاهُ لم يتقدم علم بناء الانسجة ومنافع الاعضاء ولم يظهر العالَم المحجوب عن الابصار لصغر الاجسام المؤلف منها وهو عالَمُ الجسيمات المجهرية ولكن روكتنسكي[2] لم يدع طريقةً من طرق التحقيق في هذا العلم فقد شرَّح ثلاثين الف جثةٍ فاكثر وبلغت جملة الذين شرَّحوا في فينَّا باطلاعه من سنة ١٨١٧ الى سنة ١٨٧٨ سبعين الف جثةٍ وثماني وسبعين جثةً اوضح تغيراتها المرضية في مؤلفاتهِ وخطبهِ فتأمل ·

وممن وافقهم الجدُّ في بداية القرن التاسع عشر الشهير ادورد جنر[3] الذي استنبط طريقة التقليح بمادة الجدري البقري للوقاية من

1 Leeuwenhoech 2 Rockitenski 3 E. jenner

الجدري البشري على ما هو شائع الآن وُلد في مقاطعة غلوشستر من بلاد الانكليز سنة ١٧٤٩ وتوفي سنة ١٨٢٣ وكشف طريقة التلقيح سنة ١٧٩٦

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر لم تطمح ابصار الباحثين في التشريح المرضي الى غير تغيرات الاعضاء الحادثة في الامراض على ما ترى بالنظر المجرَّد . ولكن استنباط المكرسكوب وشيوع استعماله في تلك الاثناء فتح طريقًا للتحقيق كان موصدًا من قبل فعُرف به ان الاجسام الحية باسرها مؤلفة من دقائق متناهية بالصغر لا ترى بالحس المجرَّد وان انسجة الحيوانات مبينة من هذه الدقائق التي سماها مِرْبل[1] سنة ١٨٠٨ بالخلايا لمداناتها بالشبه للخلايا التي يعسل فيها النحل . وقد ثبت ان كل كائن حي انما هو مكوَّن من عناصر تشريحية تُرَدّ بالتحليل المكروسكوبي الى الخلايا المذكورة . وان نموّ كل كائن حي انما يبتدئ بخلية واحدة لان البُوَيضة التي ينشأ منها كلّ حيوان[2] والبزرة التي يتولد منها النبات تتضمنان هنة التكوين في خليّة واحدة وان الخلايا على الجملة تنشأ في بنات ملائمة على طرق مخصوصة فتتكاثر وتتضامّ بعضها

1 Mirbel

2 Omn vivum ex ovo ٢ هذه قضيه قررها هرفي

الى بعض على انحاء مختلفة في الكم والكيف مع بقاء كلٍ منها مستقلاً بعملهِ الخاصّ فتتباين في قوامها وتتغير في اشكالها بحسب مرتبة الحي المكوّن منها سوآء كان راقياً في التكوين او سافلاً ولذلك كان كل فردٍ من الحيوانات موءلفاً من انسجة مختلفة واعضاء متباينة يقوم بكلّ منها خلايا خصوصية . فالحياة اذاً مهما تنوعت ظواهرها واختلفت عواملها في الكائن الحيّ سافلاً كان او راقياً في البناء انما هي انفعال خلايا ذلك الجسم ونتيجة حركتها من جراء فعل المبدإ المهيّج لها لتقوم بالعمل المحتوم عليها ثم تسكن فتموت وقد تولد منها غيرها على آسالها[1] فلا تزال جارية على هذا النمط وقد سمي هذا الفرع من علم التشريح بالهيستولوجيا اي علم تكوين الانسجة على ما ثبت بالمذهب الخلوي وجرى عليه العلماء عموماً و بنى عليهِ الشهير ورخو[2] تعليمهُ بان المرض انما هو خلل في الاعمال المتعلقة بالخلايا وتابعهُ بهِ علماء العصر . وُلد هذا الفيلسوف سنة ١٨٢١ فلهُ الآن من العمر ٨٠ سنة وقد احتفلت مدينة برلين بعيدهِ في ١٣ تشرين الاول من هذه السنة وعُرضت لائحة مصنفاته في مبع صحائف مطبوعة ومن ذلك يعلم انهُ برع في جميع العلوم ولا سيما في التشريح المرضي وعلم حفظ الصحة وعلم طبيعة

---

1 Omnis cellula e cellula 2 Rudolf Virchow

الانسان وهو لا يزال حيًّا يفيد العالم بمعارفهِ وعلومهِ

ولا مراء في ان التوسع بمعرفة ماهية الامراض في القرن التاسع عشر انما كان نتيجة التوسع باستنباط الذرائع التي امكن التوصل بها الى معرفة الحقائق التي القت عليها الطبيعة حجاب الغيب ومعلوم ان معرفة حقيقة الامراض متوقفة على معرفة الاعضاء ومنافعها فلذلك كان التعمق بمعرفة علم المنافع (الفيسيولوجيا) من اقوى الاسباب التي ترقى بها علم الطب لهذا العهد وقد ذكرنا ما كان من اكتشاف دورة الدم وطريقة تطهيره بالتنفس فيجمل بنا الآن ان نذكر كيف اهتدى الباحثون الى معرفة منافع الاعصاب وقد تقدم (صفحة ١٥٩) ان جالينوس عرف ان العصب يقوم بهِ الحس والحركة ولكن الذي ابدع بايضاح هذه الحقيقة واثبتها ببرهان التجربة هو شارل بل[1] الانكليزي من علماء القرن التاسع عشر (وُلد سنة ١٧٧٤ وتوفي سنة ١٨٤٢) وكان كثير الاشتغال بالتشريح والفيسيولوجيا ولهُ فيهما اكتشافات بديعة ومن تحقيقاتهِ ان كل عصب ينبت من النخاع الفقري او الدماغ باصلين احدهما يغوص منبتهُ في القائمة المقدمة للنخاع الفقري او ما تستديم اليهِ في الدماغ وهو الذي تتوقف عليه الحركة والثاني

---

1 Charles Bell

مؤخر يغوص منبتهُ في القائمة الخلفية وهو الذي يقوم بهِ الحس بدليل ان قطع الاصل المقدم يُعطل الحركة كما ان قطع الاصل الخلفي يعطل الحس . وكلاهما يلتقيان في نقطة لدى نفوذهما من الثقب بين الفقار او من ثقوب الجمجمة فيؤلفان عصباً واحداً تنشأ منهُ فروع ينضمُّ بعضها الى بعض فتتألف الضفائر العصبية ويبقى بعضها مستقلاً . وكلها تتوزع في جميع الاعضاء فتصدر عنها الحركات ويُنقل بها الحسُّ الى المراكز . وقد توسع ماجندي[1] باجراء التجارب على الحيوانات الحية فاثبت الحقائق المذكورة آنفاً وفصّلها تفصيلاً كافياً وابدع بمباحثه في الامتصاص ودورة الدم وعمل الاعصاب المنعكس وكيفية حدوث القيء ومنفعة السائل المخي الفقاري وغير ذلك مما يشهد لهُ بالبراعة والفضل . وقد انتقد اراء بيشات وندد بمذهب الحيويين . ولد سنة ١٧٨٣ وتوفي سنة ١٨٥٥ وتخرج عليهِ كلود برنارد[2] الشهير وهو نابغة العصر برع في علم المنافع العملي فلم يجارهِ احدٌ واكتشف على حقائق كثيرة خلّدت ذكرهُ في الغابرين منها طريقة توليد السكر في الكبد وعمل الاعصاب المتوزعة في الاوعية الدموية ومنافع العصب الاشتراكي (السمباثوي) ومنفعة العصب الرئوي المعدي في تعديل نبضان القلب وطريقة اختبار

1 Magendie 2 Claud Bernard

الغذآء بفعل العصارة المعدية ومنفعة عصارة البنكرياس الى غير ذلك مما يطول الكلام عليهِ ولايخلو كتاب أُلف حديثاً في هذا الفن من ذكرهِ . وُلد سنة١٨١٨ وتوفي سنة ١٨٧٧ وقد توصل فرّياي[١] وغيرهُ الى تعيين مراكز القوى العاقلة في الدماغ وبين بروقا[٢] ان مركز خاصة النطق في التلفيف الثالث لشطر الدماغ الايسر . وحقق ذلك شركوت بمباحثهِ الدقيقة وتجاربهِ البديعة وتوسع كثيرًا في تحرّى الحقائق وحلّ المسائل المشكلة مما يتعلق بالمجموع العصبي وهو الذي توصل الى تحقيق كثير من منافع المجموع العصبي بمقابلة النتائج المرضية على الاعمال العصبية فجآء ذلك مصداقاً لقول بعضهم ,, ان علم الامراض انما هو معرفة خلل منافع الاعضآء ''

ومن مبتدعات القرن التاسع عشر تعيين امراض الصدر وتمييزها بالاستقصاء والاستسماع . استنبط هذه الطريقة لينِّك[٣] بعد ان اشتغل كثيراً بالتشريح المرضي وعرف التدرن الرئوي وميزهُ عن غيرهِ من امراض الصدر ولهُ موءلفات كثيرة اشهرها في تشخيص امراض الرئتين والقلب مجلدان لا يزال الاطبآء يعولون عليهما في هذا الفن . وُلد سنة ١٧٨١ وتوفي سنة ١٨٢٦ .

وقد تقدم ان الجراحة كانت في أُوروبا كما هي الآن في

1 Ferrier 2 Broca 3 Charcot 4 Laënnec

كثير من الامصار الشرقية مهنة الحلاقين يمارسونها عفواً و يدعونها سفاهاً لاعن معرفة واختبار ولكن عن لزوم واضطرار فكانت قاصرة على الفصد والكي وبط الخراجات والختان والخصاء والبزل ورد الخلع والكسر واساوة الجروح . واول من اشار بفتح البطن لرد الفتق المختنق وخياطة الجرح بعد ذلك براكساغورس القوسي استاذ هيروفيلوس وقد اجرى ايرازيستراتوس عملية شق البطن في خرّاج الكبد والطحال والاورام في الاحشاء . وكانت عملية استخراج الحصى من المثانة شائعة كعملية قدح العين في الماء الازرق . ولكن اكثر العمليات الجراحية كان يمارسها الحلاّقون الذين كان لهم صولة وسطوة في زمن الغباوة والجهل . ولم يكن للجراحين الاطباء شأن حتى تألفت الجمعية الاولى في باريس سنة ١٢٦٨ وقررت نظاماً مؤلفاً من ٣٦ مادة فعارضتها جمعية الحلاقين المؤلفة تحت زعامة حلاق الملك وقويت عليها حتى انحاز الى الجراحين لويس التاسع وفيليب الجميل الذي اصدر منشوراً قال فيه ,, لقد احاط الملك علماً بان بعض الاجانب يمارسون في مملكته صناعة الجراحة وما هم الا لصوص محتالون سفاكون للدماء مخرقون لم يتعلموا اصول الصناعة ولم يجوزوا الامتحان. ومع ذلك تجاسروا على وضع الرايات .

في نوافذ بيوتهم كالجراحين الاصوليين فلذلك نأمر بان لا يسوغ لاحد ان يمارس الجراحة الا اذا حصل على شهادة بامضاء الاساتذة الجراحين المقيمين في باريس مصدقاً عليها من جراحنا بتردي[1] وخلفائه " وبقي الخلاف بين الحلاقين والجراحين والاطباء حتى سنة ١٦٦٠ واول جمعية جراحية انشئت في باريس سنة ١٧٣١ ثم أسست مدرسة الجراحة العملية سنة ١٧٥٠ واول مجلة جراحية انشأها ديزلت استاذ بيشات . على ان تقدم الجراحة انما كان موقوفاً على استنباط التشريح الموضعي الذي تمكن به الجراحون من التدقيق في معرفة الاعضاء التي تجرى عليها العمليات الجراحية فأمنوا بذلك من الخطاء في العمل وكان اكتشاف الكلوروفورم اقوى مساعد لاجراء العمليات الدقيقة الطويلة . كشفه سوبيران[2] الفرنسوي وليبج[3] الالماني في وقت واحد واول من استعمله للتخدير سمبسون[4] من ادنبرج . وهم الآن لا يبالون بمخاطر العمليات الكبرى بعد ان استنبط الاستاذ لستر[5] الطريقة المضادة للعفونة

1 Pitardi . Histoire des sciences, par Laboulbène
V. la Revue Scientifique; T. XLII, P. 729
2 Soubeiran 3 Liebig 4 Simpson 5 Lister

المنسوبة اليه مهتدياً بتجارب العلامة بستور[1] التي كشف بها عن علة الفساد والاختمار وطريقة تولد الجراثيم الحية وحدوث الحميات بسببها الى غير ذلك مما يأتي الكلام عليه

ولا مراء في ان تقدم الجراحة والطب في هذه الآونة انما هو نتيجة اجتهاد جمهور من الجهابذة الافاضل الذين وقفوا حياتهم على تحرّي الحقائق والتنقيب عن اسرار العلم الغامضة ولكن الفضل كلّ الفضل يرجع للعلاّمة بستور الذي سرى على ضوء مشكاته الباحثون في هذا العصر فهو اول من قال بان الاختمار انما يحدث عن الكائنات الحية المتناهية بالصغر واثبت ان لكل خمير مكروباً خاصاً به كشف عنهُ وعزلهُ واستنبتهُ في بئة ملائمة لنموه وراقب طرق توالده وتكاثره وظواهر حياة كل نوعٍ منهُ وتأثير مفرزه السام في بدن الحيوان وهو الذي اكتشف على جراثيم العدوى في الامراض الوبيلة وكانوا يتكهنون من قبل على كيفية حدوث الامراض الوافدة والمعدية ولم يعرفوا حقيقة الحمة المرضية والوبالة فاثبت ان العفونة والفساد والحمة المرضية والوبالة مسببة كلها عن جراثيم حيــة تدخل البدن بالماء والهواء والطعام وتتكاثر فيه بطرق التوالد

1 Pasteur

والنشوء فتغاليه على غذآئها ونمآئها وحينئذٍ يحصل النزاع بين عناصره وبينها فتحدث ظواهر الامراض المختلفة . وقد اثبت ان لكل مرضٍ مكروبًا خاصًا بهِ وعرف كثيرًا من هذهِ المكروبات وجرى على طريقتهِ الباحثون فبرح الخفآء عن الحقائق التي لم يهتدِ اليها احد قبلهُ . ومن الغريب ان العلامة المشار اليهِ لم يكن طبيبًا ولا جراحًا وانما كان كيماويًا قصر همتهُ على تحقيق المباحث المجهرية (المكروسكوبية) ومعرفة عالم الاحيآء الحقيرة فتوصل باجتهادهِ الى تقرير اصول الطب على قواعد راهنة اقتلب بها من حالة الظنون الى حالة اليقين وكفاهُ شرفًا استنباط طريقة اللقاح لتخفيف حمة الامراض الوبيلة وتلطيفها كالكلب والبثرة الخبيثة وضربة الطحال في الغنم والتيفوس البقري الى غير ذلك مما تحدّاه به تلامذتهُ المجتهدون كروكس[1] مستنبط اللقاح في في الخناق (الدفتريا) ويرسن[2] مستنبط اللقاح في الطاعون وغيرهما وعلى الجملة فهو مجد الامة الفرنسوية وسراج العصر المنير وقدوة العلمآء العاملين الذي وقفوا حياتهم لمنفعة بني الانسان

ذي المعالي فليعلوَنْ من تعالى . هكذا هكذا والَّا فلا لا

ولا يسعنا المقام ان نأتيَ على بيان مكتشفات العلامة بستور

1 Yersin 2 Roux

ومنافعها وطريقة توصله اليها وما تحراه من التجارب الدقيقة لاظهار حقائقها فنجتزي بالاشارة الى ما تهم معرفته عامة المطالعين مما لا يخرج عن صدد الموضوع الذي آثرناه في سرد الوقائع التاريخية ٠ وقد تقدم ان لوُنهوك استنبط المكروسكوب وكشف به عالم الاحياء الدقيقة سنة ١٦٧٥ في النقاعة بطريقة يسهل اجراؤها وهي ان يؤخذ شيء من المواد القابلة للفساد كاللحم والثمار وينقع في الماء ويغلى حتى ينتهك ثم يصفى الماء عن النقيع ويوضع في مكان حرارته بين ٣٥° و٤٠°س ويترك يوماً او يومين فيصير الماء كدراً بعد ان كان صافياً فاذا فحصت قطرة منه بمجهر يكبر الاجرام ٤٠٠ او ٥٠٠ ضعف يظهر في تلك القطرة مشهد يأخذ بمجامع الالباب لان الوف الالوف من الكائنات الحية تتزاحم فيها طلباً لرزقها . فبعضها تثب من مكان الى آخر بسرعة تدهش الابصار وبعضها تسير الهوينى متئدة في حركاتها وبعضها تلبث غير متحركة وكلها تتفاوت في الحجم والشكل ولاسيما اذا كانت مواد النقيع مختلفة كأنَّ كلَّ جسم منها محتاج الى بيئة موافقة لقيام حياته . وسميت هذه الكائنات بالنقاعيات وهي من كل شيء الماء الذي تقع فيه لانها اول ما كشفت فيها ثم ثبت ان جراثيمها تكون في الهواء ٠ وتوسعوا في درسها

وبيان مراتبها ومعرفة اشكالها وخصائصها وقسموها الى اجناس وانواع واصناف يطول الكلام عليها . والذي حداهم الى التوسع في البحث عنها مسئلة التولد الذاتي فمنهم من قال ان الحيوانات السافلة في مراتب الخلق تنشأ من تلقآء نفسها في العفونات والمواد الفاسدة ومنهم من انكر هذا القول واثبت ان كلَّ حيٍ انما يتولد من حي [١] . اما القول الاول فكان عليهِ جمهور القدمآء اتباعاً لمذهب ارسطو [٢] واول من تصدّى لنقضهِ ببرهان التجربة طبيب طلياني اسمهُ فرنشيسكو رَيدي وذلك سنة ١٦٦٨ فانهُ اخذ في مراقبة اللحم ليتحقق سبب نتنهِ فوجد ان الدود الذي يتولد فيهِ انما ينشأ من بيوض يلقيها الذباب الذي يحوم عليهِ ولم يكن المكرسكوب معروفاً حينئذٍ فلم يتمكن الطبيب المذكور من معرفة علة نتن اللحم الحقيقية كما عرفها من جآء بعدهُ الا انهُ تهيّأ لهُ بما أجراهُ من التجارب ان يثبت حقيقة هذه القضية وهي ,,كل حيّ من حي‘‘ فكانت اراؤهُ في هذا الشأن حجة يعوَّل عليها . ولكنهُ بعد استنباط المكرسكوب وكشف العالم الحي المؤلف من الكائنات المتناهية في الصغر كان من رأي جماعةٍ من الباحثين ان هذه

1 Omne vivum ex vivo

٢ عجائب المخلوقات للقزويني

الكائنات اصلٌ صدرت عنهُ الكائنات التي هي ارقى منها في البناءَ فعادوا الى القول بالتولد الذاتي لانهم لم يتمكنوا من كشف جراثيمها حينئذٍ فنشأت منذ ذلك الحين المساجلات بين العلماءَ على هذه المسئلة وكثرت فيها مباحثهم واختلفت مذاهبهم في تحقيق احد وجهيها وتحري التجارب التي تحلُّ بها معضلات مشاكلها

وكان من اخص نصراءَ القائلين بالتولد الذاتي بدهام فانه نشر اراءَهُ سنة ١٧٤٨ ومحصلها ان الكائنات الحية تكونت في الاصل من دقائق اصلية تضامَّت بعضها الى بعض بفعل قوة مكوّنة خصوصية فعارضهُ بذلك سبالنزاني سنة ١٧٧٨ واثبت ببرهان التجربة ان الكائنات الحية التي تتولد في النقاعة انما تنشأ من الجراثيم التي تندسُّ فيها من الهواءَ وبرهانهُ على ذلك انهُ اذا وضعت النقاعة في قارورة مسدودة سدًّا محكمًا واغليت على حرارة ١٠٠° س ثم وضعت في الحالة الموافقة لتوليد الكائنات الحية فيها لبثت غير متغيرة شهورًا عديدة لانقطاع الصلة بينها وبين الهواءَ الخارجي بعد موت الجراثيم التي كانت فيها قبل الاغلاءَ . وردَّ بان القارورة التي وضعت فيها النقاعة لم يكن فيها من الهواءَ ما يقوم بحاجة هذه الكائنات بناءً على انهُ

اذا منع الهوآء عن كائن حي لم يبقَ سبيل الى ظهور الحياة فيهِ فدفع شلز[1] هذا الاعتراض بطريقة اوصل فيها الهوآء الى القارورة بعد تنقيتهِ بمروره على الحامض الكبريتيك المركز لظنهِ ان الجراثيم السابحة في الهوآء تموت بعرضها على الحامض المذكور. وفي سنة ١٨٣٧ نشر شوان[2] رسالة ذكر فيها ان علة العفونة وفساد اللحم ونتنه انما هي نتيجة التحليل من نموّ الكائنات الحية في المواد الآلية وان هذهِ الكائنات انما تتولد من جراثيم سابحة في الهوآء وانه متى نقي الهوآء من هذه الجراثيم امكن حفظ الموادّ التي تمسّها من الفساد. وفي سنة ١٨٥٤ عمد شرودر[3] الى تنقية الهوآء من جراثيم الكائنات الحية بواسطة سدادة اي قطعة من القطن المندوف اقرّها على افواه الآنية بعد اغلائها. وما زالوا يتوسعون في التجارب والتحقيقات ويقوى القول بنفي التولد الذاتي حتى نشر بوشاي[4] مؤلفهُ المعنون „ بالتولد الذاتي " فران بهِ على عقول كثير من الباحثين وانقاد فريق الى تأييد رأيه حتى ابدع العلامة بستور بتحقيقاتهِ في ابطال الاختيار فتصدّى للمسئلة ونزل الى مضمار المساجلة فبحث فيها بحثاً عجيباً وفي سنة ١٨٦٢ نشر رسالة في الجسيمات السابحة في الهوآء بناها

1 Sch[illegible] 2 Schwaun 3 Shrouder 4 Boucher

على ما اجراهُ بنفسه من الامتحانات التي لم يصل اليها احد ممن سبقهُ فانهُ التقط هذه الجسيمات من الهواءَ وتمكن من فحصها بالمكرسكوب فوجد ان اكثرها من ذوات البناء الحيّ فزرعها في نقاعةٍ بعد تطهيرها بالاغلاءِ فنمت فيها الكائنات الحية بعد حين وتكاثرت جداً وبذلك دفع حجة القائلين بالتولد الذاتي وقوّض اركان براهينهم واثبت ان كل حيّ يتولد من حيّ

ووكلت اليهِ نظارة الزراعة في فرنسا سنة ١٨٦٥ امر البحث عن علة دود القز بايعاز من استاذهِ الكيمياوي الشهير دوماس فبقي يشتغل في هذا الموضوع خمس سنين منقطعاً الى المراقبة والامتحان بين الفلاحين المعتنين بتربية الدود حتى عرف العلة واثبت كونها صادرةً عن جراثيم حية فتمهد لهُ بذلك السبيل لمعرفة العلل الوبيلة التي يصاب بها الحيوان والانسان واتخاذ الوسائط الفعالة لاتقاءِ شرها ودفع ضرّها فكأنهُ ظفر بالحجر الكريم الذي افنى الفلاسفة القدماءَ عمرهم في طلابهِ طمعاً بالحصول على الثروة والسعادة واطالة الحياة

ولما اشتهر هذا العلامة بدقة مباحثهِ وكثرة تحقيقاتهِ ناصبهُ كثير من رجال العلم وشنعوا عليه المقال ولاسيا لانهُ تكلم في كثير من المباحث الطبية وهو ليس بطبيب فانتصر لهُ منهم

قوم افاضل لا ينطقون عن الهوى كالاستاذ كُهن [1] والدكتور كوخ [2] من المانيا والعلامة تندل [3] والجراح لستر من انكلترا وطال النزاع وكثر الجدال وهو دائب على تحرّي الحقائق واجراء التجارب الدقيقة البديعة واستنباط المسائل العجيبة الغريبة حتى ثبت تعليمهُ وانتشر في الزمن القصير فعمَّ انحاء العالم وصار شغل الاطباء والعلماء والحكماء ومطمح ابصارهم وسرح افكارهم

وقد ابدع كُهن في بيان حقيقة الفساد ونسبته الى المكروب [4] قال ,, ان الفساد انما يقع على المواد الازوتية

---

1 Cohn 2 Koch 3 Tyndall

٤ مكروب microbe لفظه ماخوذة عن اللغه اليونانيه Μικρόσιος معناها في الاصل « حياة قصيرة » واول من استعملها سديليوت سنه ١٨٧٨ للدلالة على هذه الجراثيم الحيه بينما كان يطالع تقارير العلماء الواردة على جمعيه الاطباء في باريس وكان حينئذ رئيسا لها وقد رأى هذه التقارير مملوة بذكر اسماء غريبة للدلالة على هذه الجراثيم ينبو عنها السمع فقال ماضر لو اطلقنا عليها لفظه خفيفه يعم استعمالها ولا يمجها الذوق وارسل الى صديقه الطبيب اللغوى ليترای يساله عن ملائمه وضع هذه اللفظه فاستحسنها ومنذ ذلك الحين جرى عليها العلماء اجمالا ولم نر باسا من تعريبها ولا سيما بعد شيوعها بين المتكلمين بالعربيه

بما تفعله فيها الجراثيم الجهرية وهو يكون سريعاً او بطيئاً بحسب كثرتها او قلتها و يتوقف بكل واسطة تمنع نموها او تهلكها · فمضادات الفساد اذاً انما هي مضادات المكروب · وقال ان الامراض الوافدة والمعدية انما هي مسببة عن هذه الجسيمات السابحة جراثيمها في الهوآء او المآء فمتى اصابت الجسم الحي ووافقت الاحوال نموَّها توالدت فيه وكثرت الى حدٍّ فاحش فتفسد سوائلهُ وتحالّ منسوجاتهِ فان قوي الجسم عليها عاد الى صحتهِ وان قهرتهُ هلك وبناءً عليهِ عرّف المرض بانه جهاد بين المكروب والجسم المنتشر فيه · واغرب الدكتور كوخ في مكتشفاتهِ الكثيرة من هذا القبيل لانهُ هو الذي اكتشف باشلس (أنبوبيات) التدرن في السل والبرص وجرثومة الهوآء الاصفر والحميات الغَمقيّة[1] وجرى بعد ذلك الباحثون شوطاً بعيداً في هذا المضمار فكشف لفلر[2] جرثومة الخناق وبين يرسن وقيتازاتو الياباني جرثومة الطاعون وما زالوا يتسابقون في الاكتشافات من هذا القبيل

---

١ بالنسبة الى الغمق وهو من الاماكن الذى بلله الماء · يقال نبات غمق لريحه خمة وفساد لكثرة الندى · وهو المراد بالملاريا كلمة طليانية مركبة من Mala ردى و aria هواء·

2 Löffler

ان للالمان اليد الطولى في هذا العلم عهدت بتدريسه الى طبيبين من نطس اطبآء المانيا وهما الدكتور هفمان والدكتور ملّز اللذان وضعا نظام المدرسة الكلية المشيّدة بامداد الحكومة في توكيو. وهي مدرسة حافلة بجميع وسائط التعليم منقسمة الى اربعة اقسام تدرس في احدها العلوم الادبية وفي الثاني العلوم الشرعية وفي الثالث العلوم الفلسفية وفي الرابع الطب .. وقد بلغت المكاتب العمومية في تلك المملكة سنة ١٨٨٩ اثنتين وعشرين مكتبة يتردد اليها في السنة اكثر من ١١٠٠٠٠ من القرآء وينشر فيها سنويًّا اكثر من ثلاثة آلاف مؤلف فليتأمل ذووا الالباب

واذا كان ثلاثةٌ من اطبآء اليابان شعروا بفضيلة العلم لان احدهم نظر الى صوَر كتاب في علم التشريح وهو لا يعرف لغتهُ التي حظر تعلمها رؤسآء امته تحت طائلة العقاب بالموت فحملهم ذلك على معاناة البحث عن الحقيقة ولم يثنهم خوف العذاب عن الاجتهاد ولكنهم هبوا بهذه الامة من سبات الغفلة وطاروا بها الى ذروة الكمال حتى ضارعت الامم الاروبية الراقية في الزمن القصير فما عذر الامة العربية عن هذا السبات العميق وهذه الغفلة المستمرة وهي التي اهتدى بهدى علمآئها السابقين رجالُ العلم من الامم الاروبية اجمع كما سبق بيان ذلك. ألم

ان رزح المرؤسون تحت نير الاستبداد واعتمدوا على رؤسائهم لا على انفسهم في تدبير شؤونهم واستسلموا للمقادير ولم يتحولوا عن خطة التحدي والتقليد . واذا كان الرئيس يرى ان لا مطالب له في ما يعمله ولا دَرَكَ عليه في سياسته وانهُ لايتحمل تبعة خطلهِ وخطإه فماذا يمنعه ,,وهو انسان‘‘ من اتباع شهواته ومطامعه او ماذا يدفعهُ للسهر على مصلحة الامة وسِنةُ النعاس غالبةٌ عليهِ وكيف يطيق صاحب السلطة ولا سيما اذا لم تكن مقيدة ان يرى الناس,, وقد خلقوا لاجلهِ على ما يعتقد‘‘ راغبين في الحرية فلا يصدّهم عنها وكلٌّ يسعى الى مصلحة نفسه وانما العاجز من لا يستبدُّ . هذا هو سبب تأخر الشرقيين وليس كما يتوهم البعض من ان عقول الاوربيين على الجملة اكمل عن عقولهم وانهم اشدُّ نباهة واعظم كَيساً بفطرتهم الاولى وان نفوسهم الناطقة اكمل بفطرتها من نفوسهم وان التفاوت بينهم واقع في حقيقة الانسانية

وقد وضح ان الاروبيين لم يبلغوا هذا المبلغ العظيم من الترقي والنجاح الا بعد ان عتقت افكارهم من ربقة العبودية ونشطت احلامهم من قيود التقليد وهذه هي امة اليابان يشهد ترقيها العجيب في مدارج المدنية والعمران منذ مدة قريبة على ان النجاح لا يُعلَن ان لم يُمِطْ عنهُ حجاب التقليد ويرفع برقع

كلوت بك في مؤلفه[1] تاريخ مصر عبرة وذكرى قال ما ملخصه

„ لما رأت فرنسا ان ظل سلطتها قد تقلص عن وادي النيل وليس لها مطمع برجوعه عمدت الى بسط ظلها المعنوي ليكون وسيلة لرجوع سطوتها ونفوذ كلمتها واناطت بالمسيو جومار نشر مكتشفات الندوة واتمام المباحث العلمية والتاريخية التي بدي بها منذ احتلال الفرنساويين مصر فجاء الى الاسكندرية سنة ١٨١٥ وسعى مع قنصل الدولة الفرنسوية لدى الخديوي بتهيئة السبيل الى اتمام ما ندب اليه وكان قصده ان يجمع بين مصر وفرنسا بتهيئة سبيل التعليم والنجاح الادبي فلم يجد لذلك وسيلة افيد من حمل المصريين على طلب العلم

„ وكان محمد علي باشا خديوي مصر يرى ان الامة المصرية لا تقوم لها قائمة بغير العلم وان العلوم التي تعلم في الجامع الازهر وغيره لا تفي بتحقيق امانيه فارسل الى فرنسا وايطاليا عدة من الشبان لتلقي العلوم فيهما منهم عثمان افندي نور الدين الذي تخرج في باريس وامتاز باجتهاده ومداركه . فاسر اليه حينئذ موسيو جومار بنجواه رجاء ان يكون معيناً له على تحقيق

1 Aperçu général sur l, Egypte, par A.-B. Clot-Bey; t. II, p. 333

الهولندية ونحوًا من سبعماية كلمةٍ حفظها من طريق سريّ عن الهولنديين فصاروا يجتمعون في الشهر خمس مرات او ستًا يتباحثون في العلم ويحاولون حلّ رموز ذينك الكتابين ويشرّحون بعض الحيوانات وعلى هذا الوجه تمكن سوجيتا ولكن بعد عناءٍ عظيم من معرفة شيء من اللغة الهولندية ثم ضوى اليهم نفر من مثل نمطهم فاشتهر امرهم وذاع صيتهم وكان كل منهم قد اخذ على نفسهِ الاشتغال بفرع من العلوم فتفرّغ ميّدا للادب والفلسفة وسوجيتا للطب فألف كتابًا في التشريح أصلح فيهِ خطأ اسلافهِ الا انه خاف في اول الامر من نشرهِ ثم غلبتهُ الرغبة في نفع وطنهِ فشرع في طبعهِ غير مبالٍ بما يكون بعدهُ ولكن خدمهُ حسن البخت فحاز الكتاب قبولاً واستحسانًا في عيون (الشوغن) امرآء المملكة واذنوا في نشرهِ والاخذ عنهُ ومنذ ذلك الحين تهيّأ دخول الطب الأُوروبي الى اليابان وفي سنة ١٨٥٧ عرفت مدرسة الطب الهولندية بين يدي الحكومة اليابانية معرفة رسمية وفي سنة ١٨٦٨ــ١٨٦٩ حدثت في تلك المملكة ثورة هائلة كان من نتائجها طلب الحكومة اليابانية وفدًا فرنساويًا لاصلاح شؤون جندها ورغبت في اصلاح علم الطب بقدر ما تستلزمهُ الحال العسكرية. واذ كانت تعتقد ان

ويستنبطون العلاج بالمصل لقاحاً على طرق بديعة نجح بعضها ولم يزل البعض الآخر موضوعاً لتحقيق المجتهدين

نبذة خامسة

في الطب الحديث عند الشرقيين

اذا استثنينا امة اليابان من الشرقيين لا نرى في الشرق على اتساع ممالكهِ وكثرة سكانها امةً يجاري اطباؤُها اطباء الغرب ويبارونهم في حلبة التقدم بل لا نرى في دُوَل الشرق اجمع دولة يصحُّ لابنائها ان يفاخروا غيرهم بفضل طبيبٍ نبغ فيهم لهذا العهد فابدع رأياً يُعَوَّل عليهِ اوكشف عن حقيقة يعتدُّ بها كما تفاخر امم أوروبا بعضها بعضاً بعلمائها وأطبائها ذوي الابداع والاختراع وما ذلك الاَّ لان الشرقيين على الجملة من رؤَساء ومرؤُسين قد ترفعوا عن العالم الهيولاني وتاهوا في فيافي الخيال فجعلوا الروساء آلهةً او ممثلي الآلهة او ظل الاله المعبود فهم لا يزالون على ما كان عليهِ الناس لاول عهدهم بالمدنية من تقديم الاكرام والسجود لهذه الاشباح التي توهموا ان لها قوةً تردُ اليها من السماء فلا بدع ان استهان الرؤَساء بمرؤُوسيهم واتخذوهم عبيداً يتحكمون فيهم وفي ارواحهم كما يشاؤُون ولا غرو

يوجد في مصر وسوريا وتونس والجزائر وزنجبار وغيرها ثلاثة درسوا العلوم الطبية اووقفوا على ترقي هذه العلوم عند الغربيين لهذا العهد ؟ او لم تترجم بعض الكتب العصرية في هذه العلوم الى اللغة العربية وتنشر مطبوعة ليستفيد بها الخاص والعام ؟أ ولم تنشأ المدارس لتعليم هذه العلوم ونشرها بين ابناء هذه اللغة ؟فهل نشطت هذه الامة من عقال الوهم وتحررت من ربقة العبودية وتخلصت من قيود التقليد؟ واذا كانت مصر اقدم المدن المتمصرة واسبقها الى الحضارة والعمران لا تغار على سابق مجدها من استهانة الاجانب واذلالهم ابنائها بما يتخذون من وسائط التسلط عليهم لكنها تساعدهم على بسط هذا التسلط وتقويته بانحيازها اليهم وتوطئتها لهم كنف الرغبة فماذا يكون مصير هذه الامة ولم يبق لها من أمل للنهوض من وهدة الانحطاط الا بهذا القطر ؟ واذا كان الذين يهمهم نجاح هذه الامة يرون ان هنالك خللاً ينبغي اصلاحه أفما يجدر بهم والحالة هذه ان ان يستقصوا عن اسباب الخلل لعلهم يهتدون الى علاج ينجع في شفاء هذه العلة ؟ مسائل اجتزيء عن الجواب عليها كلها باستلفات نظر اذكياء النفوس من ابناء الوطن الى ما يفعله الاوربيون لتأييد سطوتهم وتقرير استبدادهم وتمكين سلطتهم . وفي ما ذكره

الوهم . فلا يخفى ان هذه الامة المغولية المنشأ الصينية اللغة والمعتقد كانت من اشد الامم حرصاً على تقاليدها القديمة حتى منعت الاجانب من الدخول الى بلادها لئلا يميل اهلها الى الاحداث وسنت الاحكام الشديدة القاضية بقتل كل من يخالطهم او يكون وسيلة لمخالطتهم و يتعلم لغتهم ولم تؤذن الا لفئة من الهولنديين بعد ثورة سنة ١٦٣٩ ان تقيم في طرف من الجزيرة يسمى ديسيما . واتفق ان طبيباً وطنياً اسمهُ سوجيتا فوساي عثر في بعض الايام على كتابين في علم التشريح يتضمنان صور الاعضاء واشكالها فنظر فيها نظر المتأمل اللبيب ولم يكن يعرف اللغة الهولندية فاخذت تلك الصور بجامع لبهِ الا انهُ وجد فيها فرقاً عما كان تعلمهُ من مبادىء التشريح النظري اخذاً عن الصينيين فحملهُ ذلك على البحث والتنقير ليتوضح اي العلمين اصحُّ أعلمُ الصينيين ام علم الهولنديين وشاقهُ طلب الحقيقة الى تعلم اللغة الهولندية فأسرَّ نجواهُ الى صديق له من مواطنيهِ يسمى ميدا ريوتاكو وكان هذا طبيباً محباً للعلم حريصاً على طلبه راغباً في التعلق باسبابهِ فوافقهُ على ما قصد الاّ انهما خافا تبعة الامر اذا شاع عنهما انهما يخالطان الهولنديين ويتعلمان لغتهم . ثم انضم اليهما صديق آخر كان يعرف حروف الهجاء

أمانيهِ واماني الدولة الفرنسوية فتمَّ لهُ ذلك وفي سنة ١٨٢٦
عين الخديويُّ موسيو جومار زعيماً على الوفد الاول الذى امر
بارسالهِ الى فرنسا على نفقة الحكومة المصرية وكان مؤلفاً من
اربعة واربعين فتى تعين بعضهم لدرس الفنون الحربية والادارية
والسياسية والملاحة وآخرون للطب والجراحة وغيرهم للزراعة
والمعادن والتاريخ الطبيعي والكيمياء والري وصبّ المعادن والحفر
الخ وجرت الحكومة المصرية على هذا النحو سنة فسنة فكثر طلاب العلم
من المصريين في فرنسا وفي الزمن القصير استقل هولاء الذين
تمخضت بهم مصر بمناصب الحكومة المصرية فكانوا عوناً للدولة
الفرنسوية على بسط سطوتها في وادي النيل"

ومعلوم ان بونابرت القائد العظيم لم يحتلَّ بجيشه ارض مصر
الا مدة قصيرة مع ما تظاهر به هو واتباعهُ من الاستمساك بعروة
الدين المحمدي ومخالفة الدولة العثمانية واضطهاد خدمة الدين
المسيحي الى غير ذلك من المزاعم التي توهم بانهُ يتزلف بها
من المصريين لرسوخ قدمهِ بينهم فكانت كالخط على صفحات الماء
اما جومار فانهُ بلغ بدهائهِ مالم يبلغهُ بونابرت بسيفهِ . ثم سعى
كلوت بك بانشاء مدرسة الطب بعد ان تعين رئيساً لاطباء
الجيش المصري فتمَّ افتتاحها في ابي زعبل سنة ١٨٢٧ وانشيء

مجلس الصحة علي مقتضى النظام الفرنسوي وعهد بتدريب الجند على الفنون الحربية اضباط من الفرنسويين فانتشرت اللغة الفرنسوية وامتدت سطوة الفرنسويين في وادي النيل الى اليوم

ولا يؤاخذ مصلح هذه الامة الطيب الذكر محمد علي لاستئناسه بالاروبيين واحتفائه بالفرنساويين وقد اقتضت عزيمته الشماء وسياسته الحكيمة النهوض بهذه الامة الى ذرى المجد ولم يجد سبيلاً لذلك الا باستئصاله شأفة الفساد وتقرير مبادىء الاصلاح على قواعد متينة ولم يكن لديه من الرجال المحنكين الخبيرين من يعتمد عليه في تدريب عسكره على النظام الجديد الذي آثر ان يبدأ به الاصلاح الذي نواه

ولو وجد في الامة المصرية حينئذ اكفاء لهذا الامر الخطير لما رغب عنهم بسواهم . على انه مع ذلك لم يأمن من الفتن والدسائس فاضطر ان يبعد الكتيبة التي عبأها لتتدرب على الفنون الحربية الحديثة عن القاهرة ولم يجد مكاناً موافقاً لاقامتها الامدينة قنا من الصعيد . وبعد ان تمّ له الامر على ما يروم عين كلوت بك رئيساً على اطباء الجيش وأنشأ في ابي زعبل المستشفى الاميري ثم بدا له ان يلحق بهذا المستشفى مدرسة طبية على ما اشار بهِ كلوت بك فقرر ذلك وأجراه مع ما كان يحول

دونهُ من العقبات ولا سيما بالنظر الى تحريم التشريح واختيار لغة التعليم

وبعد ان استتبَّ لهُ الامر وسرَّ بنجاح قصدهِ عمد الى نقل مدرسة الطب ومستشفاها الى القاهرة وعين لها قصر العيني وجعل البناء في ابي زعبل مدرسةً اعداديةً لتعليم العلوم والفنون وانشأ في الاسكندرية مدرسة على هذا النحو. وعني بتعليم العلم ونشرهِ فانشأ المدارس الاولية في جميع انحاء القطر المصري وجعل مدة التعليم فيها ثلاث سنين ليترشح التلامذة في نهايتها للدخول الى احدى المدرستين الاعداديتين المذكورتين آنفاً. وقد تقرر ان تكون مدة الدرس في كل منهما اربع سنين فبلغ عدد الطلبة في السنة تسعة الاف تلميذ كانت الحكومة المصرية تقوم بنفقة تعليمهم وتصرف لهم ثمن الطعام والكساء ومع ذلك عينت راتباً شهرياً لكلّ منهم تزداد كميتهُ من سنة الى اخرى

وقد نبغ في مدرسة الطب المصرية جمهورٌ من الاطباء والجراحين الذين وضح فضلهم في مصر وسوريا وترجموا الى اللغة العربية كتباً كثيرة في جميع فروع علم الطب طبعت بمطبعة بولاق التي انشأها فقيد مصر لنشر العلوم وتعميم المعارف ولما كان الاساتذة الذين عُينوا لتدريس العلوم الطبية في المدرسة

المذكورة لا يعرفون اللغة العربية خُصِّص لهم مترجمون ينقلون الى التلامذة الدروس التي تُعطى لهم بلغتهم العربية

فيرى مما تقدم ان محمد علي باشا استمسك باقوى اسباب الترقي للنهوض بالامة المصرية من وهدة الانحطاط . وسواء نحا من تلقاء نفسهِ تحويل ,, الفلاحين " الى اطباء ومهندسين واداريين وسياسيين او كان هذا المنحى موعزاً اليهِ من احد الاجانب كما زعم بول موريابي صاحب تاريخ محمد علي[1] فالغايةُ من اجلّ ما تصبو اليهِ النفوس الكريمة والوسيلةُ اليها من افضل ما يسعى اليه الكرام . ولا يلام مصلح هـذه الامة ان لم تتحقق امانيهُ على ما ينبغي او حال دون تحقيقها دسائس المتكسبين ممن القوا بساحتهِ عصا الترحال فأحلهم على الرحب والسعة فكان من امرهم انهم تبسطوا بمالهِ اوبمال الامة وتحكموا بهـا وانقلبوا عليها بالشتائم والطعن . وكذا شأن الاشرار ولله دَرّ افلاطون حيث قال ,, لا تصحبوا الاشرار لانهم يمنّون عليكم بالسلامة منهم "

وقد ندد بول موريابي المذكور بالذين اشاروا على محمد علي باشا بانشاء المدارس العليا في مصر قال ما ملخصهُ ,, ان

[1] Histoire de Méhémet - Aly, par Paul Mauriez; T. III; ch . XXVI — XXVII.

انشاء مثل هذه المدارس للمصريين على امل ان ينبغوا فيها كمن يحاول ان يجتني من الشوك عنباً لان هذا المنحى لا يلائم امةً لم تزل قاصرة ولم تخرج عن وصاية القيّم عليها .... ومما يؤاخذ بهِ هذا المورخ اتهامهُ الاساتذة بالخداع قال "وانهم لم يقتصروا على خديعة التلامذة ولم يكتفوا بالكذب على محمد علي باشا بل تطاولوا الى خديعة الزائرين من عظماء الافرنج الذين كان يتباهى محمد علي باشا امامهم باعماله المجيدة ولاسيما بانشاء المدارس فيرغب اليهم بزيارة المدرسة ليشهدوا له بالفضل وحينئذ كانت التلامذة يُعرضَون عليهم ويفحصون باللغة العربية فتترجم الاجوبة التي كانت تُلقَّن لهم من قبل على نحو ما يشاء المترجم الى ان قال "ان ابراهيم باشا لما كان في سوريا طرد من الجيش الاطباء الوطنيين الذين أرسلوا اليهِ لانهم عوّهوا الجرحى الذين نُدبوا لمعالجتهم على ما كتب الى ابيه . ثم حكى عن الذين أرسلوا الى باريس للتخرج في العلوم والفنون وان ذلك كان بقصد التمويهِ للتخلص من تبعة التقصير الحاصل فأنشيء الوفد المصري موءلفاً من شبان ورجال لم يكن همهم الا الحصول على المراتب والرواتب واقتناء الجوارى والسراري والتنعم في سكنى القصور . وتفنن ماشاء في التعليل عن ضعف قابلية المصريين للترقي في العلوم والمدنية

ناسباً ذلك الى الفطرة والعادة والتعصب الديني ورسوخ اثر العبودية في اخلاقهم الى غير ذلك . وزعم ان الوفد المذكور عاد الى مصر وبضاعته الادعاء الفارغ وشيء من معرفة اللغة الفرنسوية وبعض مبادئ العلوم . وقد أحسن ملتقاه لما أشيع عنه من النجاح فتظاهر بمظاهر العظمة وحمل على مديري المدارس الاجانب فعمت المساجلات والمشاحنات بين الفريقين . وكان ذلك سبباً لانحطاط التعليم وحجر عثرةٍ في سبيل نشر العلم وتعميمه

اما ما تحامل بهِ هذا المؤرخ على المصريين فظاهر من تسميتهِ اياهم تارةً بالفلاحين وطوراً بالعرب على سبيل التحقير كأنهُ لم يعلم ان علماءَ أمتهِ يجلون هذا الاسم ويعتبرون السلالة العربية اكرم مما سواها محتداً وارفع مما توهم شأناً . وكثيراً ما مزج بين الترك والعرب والفلاحين في تحاملهِ . واذا لم ينجح المصريون الذين تخرجوا في مدارس باريس وكانوا على ما اتهمهم من ضعف المدارك المموهة بطلاوة الحديث وخفة الحركة وسهولة المحاكاة فما سبب سبقهم في حلبة المناظرة وحصولهم على شهادات المدارس العليا ؟ وقد ذكر كلوت بك[1] انه بعد انشاء مدرسة الطب في ابي زعبل بخمس سنين انهى كثير من التلامذة دروسهم

1 Aperçu Général sur L' Egypte par Clot- Bey; T· II P. 414

فعينوا في المستشفيات العسكرية مساعدين لاطبائها الاوربيين وانتخب منهم ثمانية لاعادة الدروس في المدرسة على الطلبة وأُرسل اثنا عشر الى باريس للتخرج في مدارسها · فقدموا الفحص باللغة الفرنسوية تجاه مجمع العلوم وحصلوا على شهادة الدكتورية سنة ١٨٣٣ "فان احتج بما يزعمه الان كثيرون ان المدارس الفرنسوية تتساهل مع الشرقيين لانهم لا يمارسون في بلادها وبين ابناء وطنها فالحجة قائمة على هذه الامة التي ينسب اليها هذا المؤرخ لمحاباتها في الوجوه وعدم وفائها حق العلم وليس ذلك من شرف المبدإ وحرية الضمير · على انا اذا نظرنا الى الحقيقة نرى ان هذه المدرسة الملوكية لم تتدرج في سلم الكمال ولم ترقَ الى المرتبة التي اعدَّها لها مصلح الامة المصرية مع افتقار البلاد اليها وعدم وجود مزاحم لها في بابها وقد تولى ادارتها الوطنيون مدة ليست قصيرة فما سبب استهانة الاجانب بها وما الموجب لخروجها الآن من يد الوطنيين وابدال لغة الوطن باللغة الانكليزية

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيسٌ ولم يسمر بمكة سامرُ
بلى نحن كنا اهلها فابادنا صروف الليالي والجدودُ العواثرُ

اما المكتب الطبي السلطاني في الاستانة فمرجع الفضل في انشائه الى السلطان محمود الثاني. واساتذته من الاطباء الاوربيين والاتراك

المشهود لهم بالبراعة والفضل · ولغة التعليم فيه التركية · وقد تُرجمت الى هذه اللغة مصنفات كثيرة من احسن المصنفات الحديثة في جميع فروع علم الطب · وهو المدرسة الوحيدة المعتبرة شهادتها في جميع المملكة العثمانية والمقبولة في عرف النظامات الدولية عند الاجانب

ويلحق بهذا المكتب مدرستان كليتان أُنشئتا حديثاً في مدينة بيروت الاولى امركانية تقوم بادارتها لجنة من المرسلين الانجيليين والثانية فرنسوية يتولاها الاباء اليسوعيون وقد نبغ في كلتيهما جمهور من الاطباء الوطنيين ممن يعوّل على معارفهم في ممارسة الصناعة الطبية · اما المدرسة الكلية الامركانية فقد اعتمدت على اللغة العربية في التعليم عدة سنين وترجم اساتذتها كتباً كثيرة مفيدة لم تزل من احسن الوسائل لنشر المعارف بين العموم ولكن الثورة التي حدثت من تلامذتها لاسباب لا يجمل ذكرها ادَّت الى ابدال اللغة العربية باللغة الانكليزية فحرم الوطن من فوائد المؤلفات التي كانت تتحف بها ابناءه

نبذة سادسة

في تكافل الاطباء بما يرقي الطب

ومما امتاز به الاوربيون التكافل الاجتماعي وهو ان يقوم

كلٌّ واحد من اعضاءِ المجتمع الانساني من حيث هو اصيلٌ عن نفسه بعمل خاص به يشترك فيه مع آخرين على سبيل التعاضد والتعاون للمحافظة على كيان هذا المجتمع و بقائهِ وتقويتهِ ونمائهِ ودفع ما يطرأ عليهِ من اسباب الخلل فيكون كلٌّ واحدٍ منهم مستقلاً بذاته في عملهِ رشيد نفسهِ في جلب المنفعة الشخصية ومكافيئاً للاخرين في عملهم يوءازرهم على القيام بما تعين على كل واحد منهم عمله فيتكافلون جميعاً باجراءِ ما تقوم بهِ المصلحة العامة التي هي حق مشتركٌ شائعٌ نصيبُ كلٍّ منهم فيها كنصيب غيرهِ على السواءِ ولذلك ترى اعضاءَ المهنة الواحدة متكافلين فيما بينهم متكافئين في عمل كل واحدٍ منهم على نظام يكفل النجاح والنماءَ والبقاءَ في الخصوص والعموم وليس للحكومة دخلٌ في شوءُونهم الا بمقدار ما خوّلوها لاجراءِ هذا النظام. اما الشرقيون فلا تكافوءَ بينهم ولا تكافل لان الواحد منهم يعدُّ نفسه سيداً لمن دونهُ وعبداً لمن فوقه فينتج عن ذلك استبداد القوي بالضعيف وفقد الاستقلال الذاتي والحرية ونتيجة ذلك موت الجامعة الوطنية ولذلك كان اعتمادهم على روءَسائهم كاعتماد القصر على اوصيائهم. على ان القصر يخرجون عن حكم الوصاية في سن البلوغ والرشد اما الشرقيون فلا يزالون كالقصر ولو بلغوا سن البلوغ لانهم لا يرشدون ما لم يصيروا احراراً

يستطيعون هدم حائط العداوة المتوسط بين فرقهم المختلفة فلا غرابة ان استكانوا للذل وآثروا السكون على الحركة والكسل على العمل والخمول على النهضة. خذ مثلاً صناعة الطب فترى الطبيب الفرنسوي بعد ان تخرج في العلم وحصل على الشهادة المؤذنة بكفاءته وخوّل حق ممارسة الصناعة الطبية بين ابناء وطنهِ لا يقصر همهُ على التكسب مكتفياً بالعلوم التي حصلها في المدرسة ولكنه يرى باب النجاح مفتوحاً يتزاحم عليه المتسابقون والسابقون منهم الجياد فيدخل في غمار القوم حيث يتاح لهُ ان يفيد ويستفيد ويشارك في ارائه اهل المهنة التي انتظم في سلكها فيتذاكرون في مجتمعاتهم وكلٌّ منهم يعرض بضاعة علمه ويكشف عما بدا لهُ في ممارسة صنعتهِ مما انفرد بتوضيح حقيقتهِ او امتاز بابداعهِ أو عنَّ لهُ ان يبتكرهُ فيناقشهُ عليهِ المجتمعون حتى تنجلي الحقيقة وحينئذٍ تنشر اخبارها الجرائد والمجلات فتجوب اقطار العالم ويطلع عليها من شاء في كل قطر ومصر فمن وجد فيها خللاً فاصلحهُ او نقصاً فكملهُ او اشكالاً فحلهُ عدَّ ذلك لهُ مأثرةً تذيع فضلهُ وتخلد ذكرهُ. ولا يخفى ما في ذلك من دواعي الشهرة التي تُحثُّ اليها مطايا الاجتهاد. فالعلامة بستور لم يكن شيأً مذكوراً قبل ان اذاعت الجرائد خبر اكتشافهِ جراثيم الاختمار ونشرت المجلات

العلمية مباحثهُ في التولد الذاتي وما كان من مناقشة العلماء لهُ في هذا الموضوع حتى حصحص الحق وزال الريب بعد بحث طويل اشترك فيه جميع علماء اوربا في هذه السنين المتأخرة فلا غرابة اذا ان كانت الجرائد والمجلات والجمعيات العلمية من اقوى الاسباب التي ترقت بها العلوم ولا سيما الطبية في بلاد اوربا منذ عهد قريب وقد شهد بستور في حفلة خصصت لتكريمهِ بان مرجع الفضل في انتشار العلوم بسرعة غريبة للجرائد والمجلات وان اخبار المكتشفات والمخترعات المفيدة كانت الجرائد السياسية قبل ثلاثين سنة تنشرها للعموم فصارت الآن من شؤون المجلات المخصصة للعلوم والطب والفنون

والتصانيف والمجلات التي تنشر في كل سنة في مدن اوربا تدلُّ على ما هنالك من حركة الافكار الدائمة وترقي العقول الى درجة تقف دون وصفها القرائح كليلة . اما المجامع والندوات العلمية والطبية فحدّث عنها ولا حرج وفي تأليف الجمعية الطبية الانكليزية عبرة للمعتبر . وذلك أن بعض الاطباء من الانكليز ائتمروا على مقاومة الدجالين فتألفوا سنة ١٨٣٢ جمعية انضوى اليها نحو الخمسين منهم وقرروا ان يجتمعوا مرةً في السنة في احدى المدن الانكليزية وفي السنة التالية بلغ عدد اعضائها ١٤٠ وتقرر نظامها

ومن مقتضاه ان كل عضو ملزوم ان يقدم خطابًا او تقريرًا عن حالة الطب ونجاحه في كل سنة . وما زالت هذه الجمعية تنمو وتتسع نطاقها حتى بلغ اعضاؤها سنة ١٨٨١ تسعة آلاف ومائتين واثنين وقسمت الى فروع للجراحة وامراض النسآء وعلم منافع الاعضاء الخ وانشأت المجلة المنسوبة اليها وهي من اعظم المجلات الطبية اعتبارًا واكثرها انتشارًا . ومن اعمالها انها قررت في سنة ١٨٦٩ المداخلة فيما يختص بالمنافع العامة وانفذت الى الحكومة لائحة تطلب بها اصلاح بعض الامور فاجابت طلبها ومنذ ذلك الحين تقرر لها حق المداخلة رسميًا في اجرآء الوسائط الصحية والتدابير الطبية

ولكل أمة اوربية جمعيات من مثل هذه الجمعية ينضوي الى كلٍّ منها جهابذة كلّ فن حتى انهم اختصوا كل فرع من فروع العلم بجمعية خاصة كما هو معلوم بل انهم اختصوا ببعض مسائل جمعيات تقتصر على ايضاحها لما لها من الاهمية كجمعيّة السلّ والجمعية التي نظم فرائدها الاستاذ فورنياي[1] مؤخرًا في باريس لدفع مضارّ الدآء الزهري ولم يتعين اعضاؤها من الاطبآء خاصة بل انتظم في سلكهم جمهور من الفقهآء وذوي المناصب العالية وخدمة الدين وغيرهم ممن لهم شأن في خدمة الانسانية. فهل اهتمّ

(1) Fournier

احد المصريين بشيء من هذا القبيل ؟ هذا فضلاً عن الجمعيات العمومية التي تشترك فيها دولهم كلها وتحتفي باعضائها كلّ مدينة يجتمعون فيها على التعاقب لان كل فريق منهم يمثل امتهُ ويسعى لترقي العلوم والمدنية أفلا تنظر امم المشرق الى هذا التكافوء والتكافل ؟ وفي الاختلاف الجاري بين اطباء مصر على تأليف المؤتمر الطبي عبرة وذكرى

وفي طريقة انشاء الاوروبيين هذه القصور الشاهقة التي نسيمها بالمستشفيات وهذه الدور الفسيحة المعروفة بالمتاحف التي تودع فيها نفائس الكائنات وهذه الملاجيء للشيوخ والايتام وهذه المعامل لاجراء التجارب الطبيعية والكيماوية والطبية وغيرها برهانٌ واضح على فوائد التكافل الاجتماعي لان جميع هذه المنشآت الخطيرة انما يقوم بها افراد كلّ امةٍ منهم فيشترك فيها كل من آثر عمل الخير ومحبة الوطن لان فوائدها تؤول الى جمهور الامة التي يفتخر بالانتماء اليها كل واحد منهم ويفاخر بها غيرهُ من الامم الاخرى بل كل عمل خطير لا يستقلّ به العامل الفرد ولا يستتبّ اتمامهُ للرجل الواحد انما يقوم بهذه الشركات التي تتفاوت في عظمتها تبعاً لتفاوت مقاصدها فاين الشرقيون من مثل ذلك وهم قد اجمعوا على ان لا يجتمعوا واتفقوا على ان لا يتفقوا واذا أتيح لهم وجود رجل مفردٍ

في عزيمتهِ وأنفته كمحمد علي باشا يهيّيء لهم سبيل التقدم ويفتح ابواب النجاح عُدّ ذلك من الخوارق فلا تلبث اعمالهُ المجيدة حتى تزول بفقدهِ فلا يبقى الا ذكرها يدونها التاريخ بمداد الاسف

الفصل السادس

في فوضى اطبائنا وواجبات الاطباء ورد شبهات ترد على الطب

نبـذة اولى

في فوضى الطب والصيدلة في مصر وسوريا

لا يصلحُ الناسُ فوضى لاسراة لهم ولا سُراةَ اذا جهالهم سادوا

هذان القطران مصر وسورية مرتبطان بحقوق الجوار وجامعة اللغة وممنوّان بعوامل التفريق ودواعي الانحطاط نصيبُ كلٍّ منهما كنصيب الاخر. تغلب الفاتحون عليهما في ازمنة متفاوتة حتى استقلت بهما الدولة العثمانية واستتب لها الحكم عليهما وعقدت مع الدول الاروبية معاهدات تجارية كانت نتيجتها ما نراه من انتشار الاروبيين في مدنهما ومزاحمتهم السكان الاصليين وفوزهم على هذه الفئة المؤلفة من اجيال شتّى استحكمت فيها عوامل التفريق لاختلافها في المنازع والعقائد الدينية ورسوخ اثر السلطة الاجنبية عليها وعدم انتظام مجتمعها المدني. ولكن القطر المصري استقل بحكومته

بعد ان تولاه محمد علي باشا مع بقائه خاضعاً لسيادة الدولة العلية بمقتضى الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية وقد رسخ قدم الاوربيين فيه وكثرت طوارئهم في مدنه والمورد العذب كثير الزحام ولكل طارئة مجتمع خصوصي مستقل بنفسه تتولى سياسته هيئة تمثل الدولة التي تنتمي اليها ولكل دولة قوانين خصوصية لا يسري مفعولها على غير تبعتها ونتيجة ذلك تعدد الحكومات في المدينة الواحدة على مقدار تعدد الدول المختلفة

واطباء مصر وسوريا وصيادلتها اكثرهم اجانب وكلهم قد تخرجوا في مدارس الاجانب الا بعضاً من الاطباء المصريين الذين تلقوا دروسهم في مدرسة القصر العيني · ولما كان الوطنيون ممتهنين من الاجانب وليس لاحدٍ منهم كرامة عند ابناء وطنه انفسهم اضطروا للانضواء الى الاحزاب المتباينة كلٌّ منهم يغني على ليلاه فصار عمرو ينتمي الى الانكليز وزيد الى الفرنسويين وخالد الى الالمانيين وبكر الى الامركانيين والاخر الى الطليان او اليونان او الاسبان وهلم جرّاً · وليس احد ينتمي الى وطنه الا مستمسكاً بأهداب التعصب فيتخذ الواحد من الاسلام حزباً والاخر من القبط وهذا من الارثوذكس والاخر من الكاثوليك.... وكل دولة لها مصلحة في الشرق تهتم بانفاذ مآربها بواسطة مريديها من الشرقيين . واكثر الدول اهتماماً

بذلك في الشرق الادنى الدولة الفرنسوية فلا بدع ان حاولت بسط سطوتها ونفاذ كلمتها وبلوغ امانيها بما تبديه من التودد للمصريين والسوريين كما يرغب الانكليز الان في التقرب من المصريين. وغيرهم يحاولون مثل ذلك. ونتيجة الامر اضافة التحزب السياسي الى التحزب الديني وفقد الشعائر الوطنية

ومصيبة العامة بالاطباء من اهم ما يقتضي الانتباه اليه ولكنها تقع كالقضاء المحتوم فلا احدٌ ينتبه اليها ولو وجب الدرك على الاطباء والصيادلة وطولبوا بغوائل اهمالهم أو جهلهم لصلحت الاحوال كثيراً. حكي ان احد الظرفاء من مشخصي الروايات وقف مرة على دكة المرسح والتفت الى الجمهور فقال "تهزأون بي لاني لا أجيد التمثيل فلا تخذنَّ مهنة تودي بحياة الالوف منكم" يعرّض بصناعة الطب لان قليل الاطباء لا يودون واقل خطإٍ في تشخيص العلة ووصف العلاج يؤدي الى هلاك المريض ولكن عامة الناس لا يعلمون أمات المريض من اصابة الاقدار او من خطإٍ الطبيب. وليس في الصنائع كصناعة الطب صناعة تموَّهُ بها الحقائق وتجوز الاوهام فيرين بها المخرقون على عقول البسطاء ويتلاعبون بارواحهم واموالهم ولاسيما اذا كانوا من هؤلاء الذين اتخذوا الصناعة آلة للتكسب لا للتطبب ...

ولقد اجاد ابن بطلان في حديثه عن المخرقين بهذه الصناعة

فوصفهم بما ينطبق على احوالهم في هذا العصر لولا تبدّل احوال المعائش والملابس وطرق التحصيل وغير ذلك مما يتبع احوال العمران ويختلف باختلاف الزمان

ومما اجاد بوصفهِ ما يجري عليه بعض الصيادلة في ترويج بضائعهم بان يشترك احدهم مع طبيب يقاسمهُ من ثمن الدواء فيتفق كلاهما على غشّ الناس وخداعهم · ومن الغريب ان يحدث مثل هذا الامر في هذا العصر في بلاد دستورية ويُسكت عنهُ ولكن الحكومة لا تستطيع اصلاح مثل هذا الخلل ولا غيرهِ لانتماء الصيدليات الى الدول المختلفة فهذه انكليزية وتلك فرنساوية والاخرى المانية اوامركانية اوطليانية الخ ومع ذلك فان لكلٍ منها قانوناً خاصاً تجري عليهِ في تركيب الادوية فتختلف جرعاتها بموجبه اختلافاً مهماً ربما اودى بحياة المريض اذا لم ينتبه الصيدلي الى هذا الامر

ومما لا يجمل السكوت عنه تغاير الصيادلة وتزاحمهم على موارد الكسب الى حد ان يبيع الواحد منهم الدواء بنصف قيمتهِ الاصلية وما ذلك الا لانهُ نقص من الكمية الفعالة او ابدل مادة باخرى ومثل هذا الغش لا يصدر الا عن خسارة الصيادلة على ان هنالك امراً يستوي فيه الجميع وهو مضاربة التجارة. فكل صيدلي

يرغب في التوفير بمشترى العقاقير والمواد الطبية من اي معمل كانت تعريفة اثمانه ارخص من غيره وقلما يبالي بالنقاوة وجودة التركيب . واذا كان يحدث مثل ذلك في صيدليات المدن العريقة بالحضارة والمدنية وحفظ النظام فما ظنك بمدن مصر وسورية ؟ ففي مملكة بلجيكا تعين الحكومة لجنةً لفحص الصيدليات في كل سنة ومنذ مدة قريبة قدمت هذه اللجنة تقريرها للحكومة عن سنة ١٩٠٠ فنشرته في جريدة الصحة العمومية ومما جاء فيه „ الحديد المحوّل بالهدروجن هو على الجملة غير نقي يحتوي على مواد كبريتية ولا يشتمل الا على ٤٠/١٠٠ من الحديد المحول بدلاً عن ٨٩ وسيال فولر هو على الغالب فاسد لا يوافق تركيبهُ القانون وصبغة اليود لا تشتمل غالباً الا على ٣٠ او ٤٠ / ١٠٠ من اليود بدلاً عن ٧٠ / ١٠٠ " الى غير ذلك مما كشفت عن الغش فيه وبلغت صفحات قائمتها اكثر من خمسين فهل تستطيع الحكومة في مصر وسوريا ان تجري مثل هذا الفحص في بلادها على صيادلة الاجانب ليكون الاطباء على بصيرة مما يصفون للمرضى ويعلم الصيادلة بانهم مطالبون بما يبيعون وبما يشترون وانما هم بارواح العباد يتجرون

نبـذة ثانيـة
في صـفات الاطبـاء

ويجمل بنا ان نلمّ هنا ببعض الصفات التي يجب ان يكون عليها الطبيب المداوي وهو بحث افاض به القوم قديماً وحديثاً ووضعوا له قوانين يجرون عليها في غير مصر وسوريا حيث تعرف قيمة النظامات والقوانين ويحكم الوجدان ويراعى شرف الصناعة على اننا لا نتصدى فيما نذكره من هذا القبيل الا لما يعتبر به الجمهور

قال احد اطباء العصر الافاضل ما محصله [1] „ يشعر الطبيب بالتغيرات المرضية في بدن العليل بحواسه الخمس فوجب ان تكون هذه الحواس سليمة فيه على ان هذا الشعور انما يُدرَك بالعقل الذي يتدبّر به عمل الحواس نفسها ويزكن الامور التي توصلها اليه ويميز بين صحيحها وفاسدها فيعطي كلّ شيء منها حقهُ ويحلهُ محلهُ ولذلك وجب ان يكون عقل الطبيب سليماً صحيحاً رجيحاً لا يكبّر الامور الحقيرة ولا يصغر الامور الخطيرة والا كان استدلالهُ ناقصاً وقياسهُ فاسداً وعلى ذلك يتوقف "حذق" الطبيب وبه تُعرف براعته ويظهر فضلهُ وتذكر مهارتهُ فالحذق اذاً خاصةٌ يوحي

1 Traité de Diagnostique et de Sémiologie; par C. Bauchut

بها تشخيص العلل لبعض الاطبآء فيدركوا لاول وهلة الدلائل التي تميز بها علةٌ عن علة . واذا نظرت الى الاطبآء عموماً وجدتهم يتفاوتون في مراتب الحذق فهل هو من خصائص الفطرة او شيء مكتسب بالدرس والممارسة ؟ مسئلة لا يصعب حلها اذا عرفت ان الناس يختلفون بعقولهم كما يختلفون بوجوههم فترى اثنين كلٌّ منهما يقارن الآخر في عمره ومعاشه وتربيته اذا تعلما في مدرسةٍ واحدة مدة معينة ينجح احدهما ويتبلد الاخر ومثل ذلك يقال عن الاطبآء ولو صدروا كلهم عن مورد واحد . على ان الدرس والممارسة يلطفان ولاشك هذا التفاوت "

„ويجب على الطبيب المداوي ان يكون نزيهاً عفيفاً رصيناً ونعني بالنزاهة ان لا يبدر منه ما يحمل على الظنة به لانهُ لا يجمل بالطبيب ان تتنابهُ المآرب اذا شاء ان يكون حكمهُ سديداً . ويجب على الطبيب ان يكون لدى سرير المريض غير هياب ولا مضطرب البال لان الطبيب الجبان لا يملك امر نفسه فهو ابداً متذبذب متردد بين الشك واليقين كما ان الطبيب المضطرب البال لا يقوى علي التجرد لممارسة الصناعة والاعتناء بعليله لانهُ يفقد حريتهُ ويضيع انتباههُ ولاشيء يحمل على اضطراب البال مثل الاشتغال بالمضاربات ولعب القمار . . . .

„ ويجب عليه ان يكون صبوراً رزيناً بعيداً عن التوهم صادق اللهجة لا يبتغي الكسب الا من اوجهه الحلالة . هذه هي خطة الاطباء الافاضل اما المخرقون الذين يعتمدون على الادعاء والتمويه لرواج بضاعتهم فانما هم بمثابة الاثمار الخمجة تسقط من الشجرة الزكية وكم من اسرة كريمة لا يتدنس عرضها بنشوز فردمنها "

والطب علم وعملٌ فعلم الطب يراد بهِ معرفة الامراض بما تحدث عنهُ اي الاسباب وما تُعرَف بهِ اي الاعراض وما تتميز بهِ اي التشخيص وما تؤول اليه اي تقدمة المعرفة اوالانذار وكل ذلك يستلزم التعمق بمعرفة جميع فروع علم الطب لان معرفة الخلل لا يمكن الحصول عليها بدون معرفة منافع الاعضاء في حالتي الصحة والمرض وعلم منافع الاعضاء مرتبط بعلم التشريح وهذا العلم يفتقر الى علوم الكيمياء والنبات والحيوان وكلها محتاجة الى العلم الطبيعي وهو مرتبط بالعلم الرياضي * وعمل الطب العلاج بواسطة وبغير واسطة فيدخل فيهِ ما يتعلق بعلم حفظ الصحة وتدبير المرضي ووصف الدواء والجراحة وكل ذلك يقتضي ان يكون مبنياً على اساس العلم المتين فوجب ان يكون الطبيب عالماً عاملاً والذين يمارسون الصناعة بدون علم هم دجالون

ولما كان الطبيب موءتمنًا على نفس مريضه وجب ان يعاملهُ

بعاطفة الشفقة والحنوّ كأنهُ يشاركهُ فيما يشكوهُ مهتماً بشفائه كما يهتمُّ لنفسهِ سالكاً بالصدق والامانة فيما يستعملهُ وما يجيب به على الاسئلة مما لا بدَّ لهُ من ان يجيب عليه متجنباً الفضول والهذر والانذار على غير علم صحيح ومعرفة محققة بما تصير اليه نهاية العلة · وينبغي لهُ ان يكون حازماً حاذقاً متلطفاً في اختيار انفع العقاقير وايسر وسائط العلاج جرياً على مقاومة عوارض الامراض بما تقتضيه ادلة الحال فقد قيل ان الطبيب اذا دخل على المريض ينبغي ان يكون كالشجاع الذي يدخل الحرب وقد اعدَّ جميع ما يقيهِ ويتلقى بهِ فانه لا يعلم اي خصم يعدو عليه وباي سلاح يأتيهِ وبأية حيلة يأخذهُ وكذلك الطبيب يحتاج اذا دخل على المريض ان يكون عارفاً بمزاجهِ عالماً بطبيعة البلاد التي يعالج فيها واخلاق اهلها وعاداتهم ومنزلتهم في مراتب المدنية وان لا يذهل عن استقصاء كل مسئلة طبية واستطلاع جميع مايعرض في هذا الفن من تغير الآراء وتبدل المذاهب واختلاف التعاليم فان هذا العلم ليس محدود المبادئ مضبوط القواعد كالعلوم الرياضية ولكنهُ كثير التغير خفيُّ المسائل تبعاً لتغير موضوعه الذي هو بدن الانسان . فان افرادهُ تختلف اختلافاً عظيماً من جهة العمر والجنسية والسلالة والبنية والمزاج والطباع والاستعداد المرضي والتربية

والقوى الادبية والعقلية والاميال والصفات المتوارثة ومحل الاقامة وحالة البلاد ونوعية المعاش والحرفة وسائر الاحوال مما يؤثر في الامراض فيجعل المرض الواحد مختلفاً في اثنين اختلافاً يجعل الدواء النافع لاحدهما مضراً بالاخر او غير نافع له ففي مثل هذه الاشياء يجب على الطبيب ان يحترز من الخطاء ليكون نافعاً في علمهِ معتمداً عليهِ في عملهِ

نبذة ثالثة

في واجبات الاطباء نحو زملائهم

اما واجبات الاطباء بعضهم نحو بعض فنقتصر منها على ذكر ما نشرتهُ مجلة مجلس الجمعيات الطبية العام في باريز بتاريخ ٥ افريل سنة ١٩٠١ وهو ما اتخذهُ المجلس المذكور دستوراً يجري بموجبه

(١) يجب على كل طبيب دعي لعيادة مريض في غيبة الطبيب المداوي سواء كان غائباً او مريضاً ان لا يستعمل علاجاً الا ريثما يعود زميله

(٢) اذا تأكد الطبيب المدعو في غيبة الطبيب المداوي ان المريض يقصد قصداً باتاً ان يعتمد على علاجه في المستقبل يسوغ له ان يداوم عيادة المريض بعد ان يُخطر زميله

(٣) كل طبيب يُدعى بطريقة الصدفة لعيادة مريض يعالجه

طبيب آخر يجب عليه ان يقتصر على وصف الادوية اللازمة للافاة العوارض الحالية ولا يعود لعيادة المريض الا اذا دُعي من الطبيب المداوي للمشاورة .

(٤) كل طبيب يُدعى لمعالجة مريض في اثناء علة يتعاطى علاجها طبيب اخر سواء كانت حادة او مزمنة يجب عليه ان يبذل جهده لاستدعاء الطبيب المداوي فان لم يفلح يجب عليه ان يخبر بدون تأخير زميله الذي خلفهُ عما توقع

(٥) كل طبيب يدعى للمشاورة يلتزم ان يمتنع عن اعطاء افكارهِ للمريض ولمن حوله وانما يجب ان تجري المشاورة بمعزل عنهم . والعلاج المتفق عليهِ يتعاطاهُ الطبيب المداوي

(٦) الطبيب المدعو للمشاورة من قبل الطبيب المداوي او من قبل اهل المريض يجب عليه ان لا يعود لعيادة المريض الا اذا دُعي للمشاورة مرة اخرى ورُخص له من الطبيب المداوي

(٧) تقتضي واجبات الاخوّة بين الاطباء قبول الطبيب الذي يقدّمهُ اهل المريض للمشاورة مهما كان سنهُ ومرتبتهُ وحالتهُ على شرط ان لا يكون ملاماً في شرفه الشخصي وفي شرف المهنة .

(٨) ندوة المشاورة حرة يستطيع الطبيب ان يعطي فيها اراءهُ لكل من يسألهُ اياً كان الطبيب المداوي

نبذة رابعة

واجبات العامة للاطباء

وللأطباء على العامة حقوق لا يبخسهم اياها الا الذين يجهلون قدر العلم ولا يعرفون للصحة مزية ولقد احسن القائل

ان المعلمَ والطبيبَ كلاهما * لا ينفعان المرء ان لم يُكرَما
فاصبر لدائك ان اهنتَ طبيبهُ * واصبر لجهلك ان اهنت معلما

ومن اخص هذه الحقوق معاملتهم بالتجلة والاكرام والعمل بنصائحهم واتباع ما يأمرون به بالدقة وعدم التعرُّض لهم في صناعتهم فلا يليق بالمريض ومن حوله ان يشيروا على الطبيب بما يخطر لهم و يعارضوهُ في تدبيرهِ او يبدلوا علاجهُ بآخر او يضيفوا اليهِ شيأ من تلقاء انفسهم او مما وصفهُ لهم آخرون ولكنهم يستطيعون متى شآؤا ان يكلفوهُ بطلب طبيب آخر المداولة معهُ فان اتفقا وجب العمل برأيهما والا فهما يستدعيان طبيباً آخر ولاهل المريض ان يطلبوا من يثقون بهم للاجتماع بالطبيب المداوي الذي لا يسوغ لهُ ان يرفض طلبهم و يستدعي من يحبُّ او من يتفق معهُ كما يفعل البعض . . . . . . ولا يُعذَر الطبيب لجهلهِ او اهمالهِ ولكنهُ يُعذَر اذ لم يكن في وسعه ان يأتي بالخوارق ويصيرَ المحال ممكناً في هذه الحالة لا يسوغ ان يغتاب الطبيب

اهلُ المريض اذا قُضي عليه ويعيبوهُ ويستهينوا بالصناعة الطبية كأن الطبيب ضامن دَرَك الحياة او كأنه يستطيع ان يشفي سائر الامراض. وما الطبيب الا خادم الطبيعة كما قال بقراط وعليه قول مدرسة مُنبلياي Medicus interpres et minister natura فما عليهِ الا ان يراقب اعمالها ويسعفها بما تحاولهُ من دفع الضرر واصلاح الخلل الا اذا تجاوز ذلك حدَّ الاعتدال فحينئذٍ يوجّه النظر الى موآخذتها وتلطيف حدتها ان استطاع الى ذلك سبيلاً

نبذة خامسة

في رد شبهات يُعترَضُ بها على الطب

ويرِدُ على الطب شبهات لا يزال الناس يلهجون بها مع تقدم العلوم وترقي المدنية كما كانوا في العصر الخوالي وقد ذكرها ابن القف في شرح الفصل الاول من فصول بقراط وهو قوله "العمر قصير والصناعة طويلة" وفندها بكلام ننقلهُ عنه بنصهِ الرائق وهو :

اولاً — ارادة الله تعالى او علمهُ او قدرتهُ في الازل او الطالع الفلكي على ما يقول المنجمون اما ان تقتضي حفظ صحة زيد وان لا يمرض الى وقت مخصوص واما ان تقضي تغيير مزاجهِ

واختلاله فان كان الاول فلا حاجة الى علم الطب لان الصحة باقية بدون استعمال قوانينهِ وان كان الثاني لم يفد استعمال الطب والجواب كما ان الله قدّر وجود الصحة جعل استعماله على ما ينبغي سبباً لحصولها حاصلةً او ردها زائلة . ويقال لقائل هذا الشبه يلزمك ان تستريح من تكليفات المآكل والمشارب وذلك لان الامور المذكورة اما ان تقتضي الشبع والريّ او لا تقتضي شيئاً من ذلك فان اقتضت فلا حاجة الى استعمال ذلك وان كان الثاني فلا حاجة الى استعمالها لانه يكون عبثاً وكل ذلك محال لانه يلزم عنه ان يكون وجود الاغذية عبثاً وهو قول بالتعطيل وهو خطأ محض

ثانياً — لو كان الطب علماً نافعاً في حفظ الصحة وازالة المرض لكان الطبيب الفاضل قادرًا على دفع الموت عن نفسهِ لكن ذلك محال . والجواب كلُّ علم فله غايةٌ لكن ليس دفع الموت فان هذا غير ممكن ولا يلزم من انتفاء هذه الغاية انتفاء مطلق الغاية اذ لا يلزم من انتفاء الخاص انتفاء العام فانه لا يلزم من انتفاء الانسان انتفاء الحيوان بل نقول غايته دفع الاسباب المعجلة للتجفيف لا الواجبة له وهو منع العفونة وحفظ الرطوبة الاصلية من التحليل بقدر الامكان

ثالثاً — الاطباء متفقون على ان اكثر قوانين الطب حدسية ظنية وهذا امرٌ ظاهر فانه متى حضر جمعٌ من الاطباء لمباشرة

المريض او حضر واحدٌ واحد منهم فان كل واحد يصف ما لا يصفهُ الآخر ولا يحصل الاتفاق بينهم الا نادرًا وعلمٌ يكون حالهُ كذلك يكون خطاءُ صاحبهِ اكثر من اصابتهِ وما كان كذلك فلا حاجة اليهِ البتة لانهُ يكون حالهُ حالَ المجرب لشيءٍ في شيءٍ بغير علم ومعرفة والجواب ان التقصير المذكور وخفآء ما يخفى من احوال البدن حتى صار اكثر قوانين العلاج حدساً وتخميناً ليس هو لتقصير الصناعة في نفسها بل لعجز الطالب عن ادراك فروعها وقوانينها على ما ينبغي ولذلك صار الجمع من الاطبآء يختلفون فيما يأمرون بهِ المريض في المداواة لان كل واحد منهم يقع لهُ في المداواة غير ما يقع للآخر بسبب ان هذا ادرك من الاعراض ومعرفة المرض ما لم يدركهُ الآخر ولذلك متى جُمع بين الفضلآء المحققين منهم وقع اتفاقهم على نوع واحد من المعالجة

⁂

يتهم البعض جمهور المسلمين بانهم لا يتـداوون لاعتقادهم بأن المرض وشفآءه والحياة والموت كلُّ ذلك انما يقع بقضآء الله تعالى وقدرهِ وربما حملهم على هذه التهمة ما يرى من عدم اعتنآء الفقرآء والمغفلين بالصحة وعدم اكتراثهم بالعلاج واستهانتهم بالطب والاطبآء والحال ان دين الاسلام يوجب الاعتنآء بالصحة والمداواة من

الامراض عملاً بما ورد في القرآن العزيز والحديث النبوي والسنة ونحن نذكر هنا ما يدفع هذه التهمة نقلاً عن بعض العلماء المحققين فمما جاء في القرآن قوله „ لا تلقوا بايديكم الى التهلكة “ وعن النبي (١) „ تداووا عبادَ الله فان الله لم يضع داءً الا وضع لهُ شفاءً لا الهرم “ رواهُ ابو داود وابن ماجة وقوله ان الله لم يعطِ شيئاً احبَّ اليهِ من العافية “ رواه الترمذي والنسائي . وعن ابن عباس جاءَ اعرابي الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقال يارسول الله ما اسأل الله تعالى بعد الصلوات الخمس قال اسأل الله العافية فاعاد عليهِ فقال في الثالثة سل الله العافية في الدنيا والآخرة رواه الترمذي . وقال من اصبح معافىً في بدنهِ آمناً في سربهِ عندهُ قوت يومهِ فكانما حيزت لهُ الدنيا بحذافيرها . رواه الترمذي . وعن هلال بن سياف قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض يعودهُ فقال ارسلوا الى الطبيب فقال قائل وانت تقول ذلك يارسول الله قال نعم ان الله لم يرسل داءً الا جعل لهُ دواءً رواه ابن السني والاحاديث في هذا المعنى متواترة . وقال الاحنف بن قيس ثلاثة لا ينبغي للانسان ان يدعهنَّ علم يحثهُ على عمل يتزوَّدهُ لمعادهِ وطب يذب به عن نفسهِ وصنعة يستعين بها على امر معاشهِ

(١) نقلاً عن شرح ارجوزة الشيخ الرئيس للشيرازي

وقال الشافعي صنفان لاغنى للناس عنهما الاطباء لابدانهم والعلماء لاديانهم وصح عنه انه قال العلم علمان علم الابدان وعلم الاديان وساقه بعضهم حديثاً عن النبي . وقال بعض الحكمآء البلد الذي ليس فيه طبيب لايسكن . والطب من فروض الكفايات لو تركه اهل بلدٍ لعصوا

تنبيه

المسائل التي ضمنها ابو الحسن بن بطلان رسالته الموسومة بدعوة الاطبآء شرحها ابو الحسن عليّ بن هبة الله بن اثردي الارشيذيا كي في جوابٍ عن كتاب ارسله اليهِ الشيخ ابو العلآء محفوظ المسيحي البيلي قال فيهِ ,, سألتني أيدك الله بحسن المعونة والتوفيق وارشدك من اليقين الجليّ اوضح طريق ايضاح اجوبة المسائل التي أودعها الشيخ ابو الحسن بن بطلان مقالته الموسومة بدعوة الاطبآء واظهار معانيها لذوي العقول الالبــآء فجنحت عن ذلك لإشكال البعض عليّ ووصول معرفة بعضها اليّ ولكون الخاطر متبددًا والهم متجددًا ثم انني فكرت في علامة زمانهِ ورئيس اوانهِ الشيخ الرئيس ابي علي بن سينا وقولهِ حيث سأله بعض تلاميذهِ ,, اما اجوبة المسائل التي اعلمها علماً يقيناً فقد

كتبت في جوابها مع البرهان عليهِ والتي لم يكن عندي لها برهان فقد كتبتُ جوابها اقناعاً وما لم اعلمهُ قلتُ لا اعلمهُ فلي فيهِ اعلى قدوة ... وهذا القول يشف عن نفس زكية وفيهِ عبرةٌ لمدعيّ العلم في زماننا ممن يتوهمون انهم يجيبون على كل مسئلة اصابوا ام لم يصيبوا ليعتبرهم المغفلون فلاسفة

اشدُّ الناسِ للعلمِ ادعاءً * اقلُّهمُ بما هو فيهِ علما

وقد كان في النية ان انشر جوابهُ برمتهِ واستوفي الشرح بما ينطبق على المعـارف المحصلة الى يومنا هذا بقدر ما تصل اليهِ معرفتي القاصرة ولكنني رأيت ان الكلام في ذلك يطول وان بعض هذه المسائل الى المعاياة اقرب وبعضها لا يترتب عليهِ كبير امر الاَّ بتحويل المعنى الى قصدٍ آخر . وكلها على الجملة مما ينبغي ان تروَّض بهِ افكار الالبآء . فتركت الاشتغال بها ليتبصر كل من اطلع عليها ويتمرَّن على حلّ مشاكلها بقدح زناد الفكرة وفوق كل ذي علم عليم

خاتمة

هذا حديث عن رجالِ العلمِ يُحكَى لاصحاب الحجى والفهمِ
ألّفتهُ بلغةِ القومِ الأُولى كانوا مصابيحَ الدُّجى بينَ الورى
وقد رغبتُ في بيانِ نُبلهم ليقتدي أبناؤُهم بفضلهم
ويقتفوا آثارَهم ان يبتغوا طريقةً الى النجاحِ تُبلغ

***

وفي الحديثِ كلماتٌ مرّه ترمي الى اغراض نفسٍ حره
اوردتها موجزةَ العباره ويفهم اللبيبُ بالاشاره
رجاءَ ان ينهضَ ابناءُ الوطن من وهدةِ الخمول في هذا الزمن
وينفضوا عنهم غبار الذلِّ ويرأبوا الصدع بجمع الشملِ

***

والجمعُ كالعقدِ لهُ سلكٌ فإن وهى فبالشتات ذا الجمعُ يهِنْ
وذلك السلك لسانُ العربِ من ينتظمْ بهِ يفزْ بالاربِ

اي بني وطني لقد طال سباتكم أَفما تستيقظون وقد لاح لكم ضوء الصباح أتسيروا في محجة النجاح أَفلا تُبصرون

فهبوا ولبوا دعوةَ العلم انهُ ☆ ليَعمرُ ما قد صيّرَ الجهلُ بلقعا
وشدّوا اواخي الاتحادِ فترأَبوا ☆ بذلك من بُنيانكم ما تصدَّعا

احسن الله خواتمنا وسدَّد الى الصواب عزائمنا وحسبنا الله ونعم الوكيل



فهرس كتاب دعوة الاطباء

صحيفة



فهرست التكملة

صحيفة

وقعت اغلاط في الطبع لا تخفى عن ذوي الالباب ونحن نشير هنا الى ما عثرنا عليهِ منها ليصلحه المطالعون ولهم الفضل

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٦	١٨	محلسى	مجلسي
١٧	١٢	عمر	عمرو
٢٠	٢	كان	لكان
٢١	١٥	حيا	حيى
٢٦	١٢	الفارة	الفاره
٣٣	١١	جمعة	جمعهُ
٦٠	٨	العاتكه	لعاتكة
٦٤	١٥	عمآء	عمىً
١٠٦	٣	مفطورًا	مفطورْ
١١٦	١٨	Travau	Travaux
١٢٨	٣	الحميري	الحيري
١٤٣	٨	دفعًا	دافعًا
١٤٣	١٠	فأدخلو	فأدخلوا
١٤٥	١٣	الفقة	الفقه

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٤٨	١٨	النطير	النظير
١٤٩	٢	وكان	وكانوا
١٥٠	١٣	تصنيف	مصنّف
١٦٩	٦	تجرّا وقبل	تجرأوا قبل
١٨٠	٤	هذا	هذه
١٩٧	١٣	١٤٧٢	١٨٤٢
٢٠٣	١٥	الذي	الذين
٢٠٩	٦	مرح	مسرح
٢٢٣	٦	قعت	فوقعت
٢٢٥	٥	أنشتا	أنشئتا

